



أوصاف الناس في التواريخ والصلوات

تليها الزواجر والعظات

للمؤرخ الوزيري

إسحاق الدين بن الخطيب السليمانى

713 - 776 هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد كمال حبانة

طبع هذا الكتاب تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامى بين المملكة المغربية
ودولة الإمارات العربية المتحدة



أوصاف الناس في التواريخ والصلوات

تليها

الزواجر والعظات

للمؤرخ الوزير

إسكان الدين بن الخطيب السليمانى

713 - 776 هـ

تحقيق ودراسة
الدكتور محمد كمال حبانة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين
وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد ، فإن عظمة الأمم تعتبر بأفكارها التي يبدعها أبناؤها وعلمها
الذي يتسلسل في أجيالها ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

وما الحضارة إلا مظهرا حيا وترجمانا عمليا لهذه العظمة ونتائج
مباشرة للأفكار والقيم ، فإذا انطلقت الأفكار والقيم والمعاني من منهج
خلقي قوي ، وسلوك نظيف مستقيم ، شمتحت عند الأمة وقتها حضارة
عالية أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

وان الكتاب والقلم لأعظم عامل في حفظ الأفكار ونقلها من السلف
إلى الخلف ، ومن أمة إلى أخرى عبر العصور والأجيال .

فإذا ضعفت الأمة وخفت نجمها وبزها في ميدان المجد والعظمة
غيرها ، بقيت الكتب والأسفار أعظم مورد وأصدق شاهد على سابق
الأمة وماضيها .

وان الأمة الإسلامية التي بقي لها من زاهر حضارتها ، وشامخ
مجدها رصيد من الثروة الهائلة ومن المعاني والقيم والأفكار بحيث
نستطيع أن نجزم معه على أن أمة غيرها لم توازها أو تقاربها في ذلك
الميدان الرحب الذي ضاق عنه غيرها .

وان دورة التاريخ وعجلته السائرة حين تدفع العرب والمسلمين اليوم للنهوض وتحتم عليهم الجد والعزيمة لولوج حلبة التقدم والرقى لتوجب عليهم أن يستلهموا تراثهم العظيم ومجدهم العريق ، فلا بقاء لامة قطعت الحاضر عن الماضي ، وبنت دون أساس ضارب فى شعاب الزمن وارحاء الاصاله على الحاضر دون الماضي أو العكس .

ولهذا قامت في أرجاء العالم الاسلامي جهود فردية - غالبا - لبث التراث ونشره ، واهتمت بعض الحكومات العربية بذلك مشكورة وأولته العناية الخاصة .

وفي هذا الميدان عقد اتفاق هام - له ما بعده ان شاء الله - بين حكومة المملكة المغربية وحكومة دولة الامارات العربية المتحدة الفاية منه تحقيق ونشر بعض عيون هاتك الذخائر التي لا تقدر بثمن ، وكم يكون أبناء العربية وقراءها سعداء اذا كان هذا الاتفاق نقطة انطلاق تحتذى للتعاون بين العرب والمسلمين .

والكتاب الذى نقدمه اليوم هو (اوصاف الناس في التاريخ مؤلفه لسان الدين ابن الخطيب) يعد ثمرة من ثمار هذه الاتفاقية المباركة التي سيثمر ويستمر عطاؤها وانتاجها بحول الله وقوته .

وختاما نسال الله تعالى ان يرعى ملك المغرب الهمام جلالة الحسن الثاني واخاه صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل النهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة اللذين رعييا هذا الفضل الجارى ، والنفع الدائم وان يوفقهما في ميادين البر والاصلاح وخدمة الاسلام والمسلمين انه نعم المولى ونعم النصير وهو على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير والحمد لله رب العالمين .

صندوق احياء التراث الاسلامى
المشترك بين حكومة المملكة المغربية
وحكومة الامارات العربية المتحدة

مقدمة

يطيب لى اليوم أن أضيف الى التراث الاندلسى تحقيقا لاحد مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب التاريخية الادبية ، وهو كتابه « اوصاف الناس فى التواريخ والصلات » ، الذى أورده — ضمن ما أورد — فى مؤلفه الكبير « ربحانة الكتاب ، ونجعة المنياب » .

لقد اشتمل الكتاب الذى نحن بصدده على تراجم لشخصيات أندلسية ومغربية ، معظمها ممن عاصروا ابن الخطيب ، وعاشوا أحداث العصر (القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) ، فيهم الكاتب والوزير والقاضى والقائد والعالم ، بل منهم من حاز أكثر من رتبة من هذه الرتب ، على نمط الشخصية البارزة فى العصر الاسلامى الوسيط . وقد بلغ عدد المترجم لهم سبعا وخمسين شخصية بعد المائة ، مفتتحا « القسم الاول » منهم بما سبق للمؤلف أن أورده فى كتابه « التاج المحلى » . حيث يقول فى البداية :

« اوصاف الناس فى التواريخ والصلات »

« ومن ذلك ما صدر عنى مما ثبت فى كتاب « التاج المحلى فى مساجلة القذح المعلى » فى وصف :

« أبى جعفر ابن الزييات » .

... وهكذا يسترسل فى ايراد التراجم لهذا القسم ، ويبلغ عددها ثمان وتسعين ، منتهيا منها بشخصية « الادبية ام الحسين بنت احمد الطنجالى ثم يبدأ فى الترجمة للقسم الثانى منها مثلما أورده فى كتابه « الاكليل الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر » عندما يذكر :

« ومن ذلك ما ثبت فى « الاكليل الزاهر ، فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر » ، فى وصف :

« الخطيب أبى عبد الله الساحلى الملقى الولى » .

الى أن يأتى على شخصيات هذا القسم البالغ عددها سبعا وخمسين ،
حيث ينتهى منهم ((بوصف أحد الفضلاء)) ، دون أن يحدد اسمه ، على غير
عادته فى كافة من ترجم لهم من القسمين .

وغنى عن البيان أن ابن الخطيب بترجمته لهؤلاء وغيرهم — لاسيما فى
القسم الاول ((من الاوصاف)) — قد تمكن الى حد بعيد من أن يقدم لنا صورة
شيقة ذات موضوعية ومنهجية عرفت عنه فى تاريخه وخاصة فى باب التراجم،
إذا ما استثنينا بضعة أفراد تناولهم قلمه ممن أظلم الجو بينه وبينهم فكادوا
له أو كاد لهم ، أمثال القاضى النباهى صاحب ((المرقبة العليا)) والذى
استصدر الفتوى بإعدام ابن الخطيب شرعا ، والوزير — ابن زمرك
مؤازر النباهى فى حملته ضد ابن الخطيب ، وبضعة أفراد من معاصرى وزيرنا
لم يكن على وفاق معهم ، فجاءت ترجمته لهم فى ظل تلك الملابسات مشوبة
بالانفعال النفسى ، ومجانبية الواقعية . بيد أنه والحق يقال — من خلال
مطالعاتى ودراساتى لتراجم لسان الدين عن معاصريه ولاسيما فى ((اوصاف
الناس)) التى نحن بصددنا — لم أصاف مؤرخا بتلك الدقة فى الاحاطة
والشمول لمن تناولهم قلمه وصفا ، فى أسلوب شيق ، يجمع بين طلاقة
العبارة ، وعمق المعانى ، وموسيقى الالفاظ ، حسبما عرف عن أسلوبه
المسجع غالبا ، بعيدا عن التكلف للزخرف اللفظى ، وإن كانت قيود السجع
تقف عادة بالكاتب عند حد معين فى التصوير ، وخاصة فى المؤرخات ، ولكن
لوحظ لدى ابن الخطيب مقدرة الفائقة فى شمول الوصف والاحاطة بالموضوع،
مع التزامه السجع ، حتى لقد قيل عنه : أنه لا يجيد الكتابة حتى يسجع !!

وتشير تسمية الكتاب الى المصادر التى اعتمد عليها ابن الخطيب فى
استقاء معلوماته لمن ترجم لهم ، ونعنى تلك المؤرخات والتراجم ، التى تحتل
كتب الصلة بالذات من بينها المحل المرموق ، ولاسيما كتاب ((الصلة)) لابن
بشكوال (خلف بن عبد الملك) ، وكتاب ((صلة الصلة)) لابن الزبير الفرناطى
(أبو جعفر أحمد بن إبراهيم) (1) الذى يعتبر وصلا لكتاب ((الصلة)) . . ،
وكلاهما قد اشتمل على تراجم لاعلام اهل الاندلس والمغرب خاصة . كما
لعبت التجربة الشخصية للسان الدين دورا هاما بالنسبة لمن ترجم لهم فى
((الاوصاف)) ممن عاصروهم ، ومن كتب عن كتب ، وهم قدر لا بأس به بين
الآخرين .

(1) لقد نشر القسم الاخير منه المستشرق ليفى بروفنسال ، بالرباط عام
1938 م .

وينبغي ألا يغيب عنا ما لابن الخطيب من مؤلفات أخرى في هذا المجال، ولعل في مقدمتها كتابه « الكتيبة الكامنة »، فيمن لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة » (2)، بيد أن هذه « الكتيبة » قد قصرها على شعراء عصره، بينما « الاوصاف » قد ضمت أنماطا من الشعراء والعلماء والكتاب وغيرهم، وأن من بينهم من عاصره ومن لم يعاصره . وهناك التراجم التي تخللت أهم مؤلفاته لاسيما في موسوعة « الاحاطة » (3)

وقبل أن نستعرض « أوصاف الناس » لا تفوتنا الإشارة الى أن بعض المشتغلين بالدراسات الاندلسية عامة، ومن تعرضوا لآثار ابن الخطيب خاصة، — لم يسيروا الى كتابه هذا، بل منهم من أنكره، رغم أنه أورده — ضمن كتب أخرى — في مؤلفه الضخم « ريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب » الشأن في إيراد بالريحانة شأن « كناسة الدكان، بعد انتقال السكان » (4)، « ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار » (5) و « الإشارة الى أدب الوزارة » (6)، فلعل اخراج « الاوصاف » اليوم الى النور سيساعد — ولاشك — الكثيرين من المهتمين بهذه الدراسات — على اجتلاء نواحي شتى في التاريخ الاندلسي خاصة، والاحاطة بكثير ممن ترجم لهم المؤلف في شمول واستيعاب .

وبهذه المناسبة يجدر بي أن ألفت نظر من قام باعادة تحقيق مؤلف ابن الخطيب « روضة التعريف بالحب الشريف » (7) حيث قدم لتحقيقه بمحاولة لحصر آثار ابن الخطيب أن يأخذ في الاعتبار أن مؤلفات ابن الخطيب يصعب حصرها وتحديدها، وقد سبقا أكثر من باحث حول الاثبات عليها، وبذلوا

-
- (2) نشره د. احسان عباس (بيروت 1963 م) .
 - (3) سبق نشر جزأين من « الاحاطة » بالقاهرة عام 1961 م بمعرفة شركة طبع الكتب العربية بمصر، ثم حقق المجلد الاول من « الاحاطة » الاستاذ عبد الله عنان (القاهرة 1956 م) بالقاهرة .
 - (4) قمنا بتحقيقه، ونشرته دار الكتاب العربي بوزارة الثقافة بمصر عام 1966 م .
 - (5) نشر بمعرفة د. العبادي (الاسكندرية 1958 م) ضمن كتابه « مشاهدات ابن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس » ثم قمنا بنشره مع دراسة نقدية هذا العام بالرباط بتكليف من وزارة الاوقاف المغربية .
 - (6) حققناه (تحت الطبع)
 - (7) حققه أولا تحقيقا علميا شافيا الاستاذ عبد القادر عطا بالقاهرة عام 1968، ثم أعاد تحقيقه محمد الكتاني (بيروت 1970 م) .

جهد المستطاع في تسليط الاضواء عليها ، تحذوهم الرغبة العلمية الرائدة ،
ويزينهم التواضع العلمي ، فلم يقطعوا في بعض المؤلفات المنسوبة الى لسان
الدين ، بله نسبة الخطأ الى أي باحث تخيلا لعدم استناده الى دليل ، فذلك مما
يتجافى وقواعد التحقيق والاستقراء الكامل ، وما هو ((أوصاف الناس في
التواريخ والصلات)) لابن الخطيب السلماي لسان الدين — أقدمه محققا
للقرآن كمؤلف ثابت ووارد بين مؤلفاته الاخرى .

ولقد وقفت — بهذه المناسبة — اذ قرأت للاستاذ أحمد أمين في هذا
الشأن بما اعتقده الفصل ، والحكم الذي لا معقب لحكمه .

يقول :

((... ثم لا تكن مغرورا ، تعتقد أنك على حق مطلق ، وأن غيرك ان
خالفك على باطل مطلق ، بل وسع صدرك ، فاجعل حقك يحتمل الخطأ ،
وباطل غيرك يحتمل الصواب ، وقلما يعرف أحد الحق كل الحق ، ويقع أخوه
في الباطل كل الباطل . فحقك مشوب بباطل كثير ، وباطل غيرك مشوب
بحق كثير ، فاصغ الى رأيه ، وأعمل عقلك فيه ، واستخرج منه خير ما فيه ،
وان أداك ذلك الى أن تعدل عن رأيك الى رأيه فافعل ، ولا تشمئز من ذلك ،
فالحق يعلى ولا يعلى عليه)) (8) .

فما بالنا والامر يتصل بمسائل علمية ، أخص خصائصها الاجتهاد ،
وأهم ما تتصف به عدم القطع في أمور لا فكاك من احتمالاتها ، خاصة تلك
المؤرخات والوثائق !!

لقد ورد كتاب ((أوصاف الناس في التواريخ والصلات)) ضمن مخطوط
ابن الخطيب الادبي الضخم ((ريحانة الكتاب ونجعة المنتخب)) الذي يعد من
أضخم وأهم كتبه بعد ((الاحاطة)) ، وفي مقدمته ما يشير الى سبب تسميته ،
حيث يقول : ((وسميته لتنوع بسائنه المنشوقة وتعدد أفانيه المعشوقة
« ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتخب » ، مشتملا على عدة أبواب ذات
موضوعات تاريخية وأدبية ، وهي في جملة ما يلي ، مرتبة حسب ورودها
بالمخطوط :

- رسائل سيد المخلوقات ، عليه وعلى آله أزكى الصلوات .
- مراجعات ، وتهنئة بفتوحات .
- صدقات ، وبيعات .

(8) أحمد أمين « الى ولدي » ص 178 — 179 (بيروت ط 3 عام 1969)

- شكر على هدايا وارادات .
- تهان بمسرات .
- تعاز على نائبات .
- استظهار على مساعدات ، واستنجاز عدات .
- شفاعات ، وتقرير مـودات .
- جمهور الاغراض السلطانية .
- مخاطبة الرعايا والجهات .
- ظهائر سلطانية .
- اخوانيات .
- دعايات وفكاهات .
- رسائل ومقامات .
- اوصاف اعيان في تواريخ وصلات (موضوع البحث والتحقيق) .
- مذكرات وموقفات (ملحق التحقيق) .

وعن مجمل هذه الاقسام التي احتوتها « الريحانة » يتحدث لسان الدين في نفس « المقدمة » فيقول : « وقسمته الى حمدة ديوان ، وتهنئة اخوان ، وتعزية في حرب الدهر عوان ، واغراض الوان ، صنوان وغير صنوان » ، ثم يفصل لنا محتوياته في الديباجة على النحو الاتي :

تمهيدات من أوائل المصنفات ، وفي هذا الباب يختار المؤلف نبذا من مقدمات كتبه ، ورسائله السابقة ، مثل « بستان الدول ، وتخليص الذهب في اختيار عيون الكتب (لم يصل الينا هذا الكتاب بعد) وجيش التوشيح » و « الاكليل الزاهر » و « الاحاطة » و « كتاب الطب » و « روضة التعريف بالحب الشريف » و « استنزال اللطف الموجود في اسرار الوجود » . ثم يتبع ذلك ابواب التحميدات ، والفتوحات الواقعة ، والمرافعات التابعة ، والصدقات والبيعات من الاغراض السابقة ، وكتب الشكر على الهدايا ، وكتب التهاني الى آخر هذه الابواب التي فصلناها مرتبة بالارقام .

وتجدر الاشارة هنا الى ان معظم رسائل الريحانة قد جاء مؤرخا بتاريخ متأخرة ، مثل عام سبعين واحد وسبعين وسبعمائة ، الامر الذي يشير بوضوح الى ان مواده ورسائله قد جمعها ابن الخطيب بفرنطة اثناء وزارته الثانية ، وقبل قدومه الى المغرب للمرة الاخيرة .

هذا ، وتوجد للريحانة عدة نسخ تضمنت معظمها ((الاوصاف)) أشهرها وأبرزها :

1 - نسختان بدار الكتب بالقاهرة .

الأولى : يوجد منها الجزء الأول وبعض الجزء الأخير في مجلدين وبخط مغربي ، في أثنائهما ثقب ونقص واضطراب . وهذان الجزآن مصوران بالفيوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس ، ويقعان في 309 لوحة ، تحت رقم 19875 ز .

الثانية : بها نقص يسير من الخطبة ، أولها بعد الديباجة ((... وسميته لتنوع بساتينه المنسوجة ، وتعدد أفاتينه المعشوقة ، بريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ... الخ)) ، وتقع هذه النسخة في مجلدين كتباً بخط النسخ ، وقد نقلنا عن الجزأين المخطوطين المقيدين بدار الكتب المصرية ، برقم 524 أدب س ، ويقعان في 460 - 650 صفحة ، ومسطرتها 21 سطرا ، وقد سجلا تحت رقم 3459 ز .

2 - نسخة الاسكوريال بمديريد .

والمسجلة تحت رقم 1835 من فهرس الفيزي ، وهي نسخة جيدة للغاية ، وقد كتبت بخط أندلسي باهت ، وتقع في 281 لوحة كبيرة ، أعني 562 صفحة ، بكل صفحة 27 سطرا ، وفي كل سطرا 12 كلمة في المعدل العام ، وقد ذكر في نهاية هذه النسخة أنها كتبت في سنة 888 هـ .

وهذه النسخة عبارة عن مختارات من كتب ابن الخطيب ، ثم مجموعة كبرى من الرسائل عن السلاطين الذين وزر لهم بالاندلس والمغرب أو عمل معهم : (يوسف الأول أبو الحجاج ، ومحمد الخامس الفنى بالله ، وأبو الحسن المريني) .

3 - قطعة مخطوطة بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، مكتوبة بخط مغربي ، وهي عبارة عن السفر الثالث من ((الريحانة)) وعدد لوحاتها 119 لوحة كبيرة (رقم 252) .

4 - قطعة مخطوطة أخرى في مكتبة أوبسالة بالسويد ، تتألف من 154 لوحة كبيرة مزدوجة مكتوبة كذلك بخط مغربي ، وتنتهي بالسفر الأول (252 تورنبرج) .

5 — وفي مكتبة الجزائر الوطنية قطعة كبيرة من « الريحانة » تشتمل على 181 لوحة مزودة من القطع الكبير ، مكتوبة بأكثر من خط ، معظمه قديم ، والبعض — وخاصة الوسط — قد أكمل مؤخرا ، أو بتاريخ أحدث بعبارة أدق ، وهذه النسخة تشتمل على النصف الثاني والآخر من «الريحانة» حيث تبدأ بالفصل الذي يحمل عنوان « جمهور الاغراض السلطانيات » ، ويغلب على الظن أن هذه النسخة هي أقدم جزء من المخطوط رقم (2010).

6 — وفي خزانة القرويين بفاس قطعتان من « ريحانة الكتاب » الاولى تضم السفرين الرابع والخامس وتقع في 99 لوحة مزودة من القطع الكبير ، في كل صفحة منها 27 سطرا ، قد كتبت بخط مغربي ، وفي نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها ، وهو يوم الاحد قبل الزوال ، عام تسعة عشر ومائة وألف (لم يذكر تاريخ اليوم أو الشهر) ، وهي برقم 40 — 565 ، وأما الثانية فهي برقم 3011 .

7 — أما في الخزانة العامة بالرباط فتوجد عدة نسخ من « الريحانة » أظهرها النسخة الكتانية ، المسجلة برقم 331 ك ، وهي عبارة عن مجلد ضخم يتألف من 609 صفحة من القطع الكبير ، وفي كل صفحة 25 سطرا ، وقد كتبت بخط مغربي واضح ، وفيها زيادات حديثة ، أغلب الظن أنها ليست من انشاء ابن الخطيب ، ولاسيما الجزء الخاص بذكر ملوك بني أمية ، والخلفاء من بني العباس ، وهو غفل من تاريخ كتابته . أما النسخة الاساسية للريحانة فتقع في 599 صفحة .

وما دما بصدد « المكتبة الكتانية » التي ضمت الى الخزانة العامة بالرباط ، فهناك نسخ أخرى من الريحانة تنسب اليها ، فأحداها نسخة أخرى ناقصة ، قد أصابها البلى من القدم ، ورقمها 705 ك ، وتقع في 221 لوحة بكل صفحة منها 23 سطرا مكتوبة بخط مغربي معقد ، وفي نهايتها تمام نسخها وهو 4 محرم 1079 هـ . كذلك تنسب للمكتبة الكتانية نسخة أخرى ناقصة أيضا ، تقع في 172 لوحة بخط مغربي ، ورقمها ، 1075 ك ، وهذا بالإضافة الى نسختين كتانيتين تليان النسخ السابقة في الاهمية ، الاولى برقم 1567 ، والاخرى برقم 3011 ، وهذه الاخيرة ناقصة من اولها ، مبتورة من آخرها .

8 — وتوجد بنفس هذه الخزانة — غير ما ذكرنا — سبع نسخ من « الريحانة » أحداها نسخة كاملة ، عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط ، ويشتمل اولها على 222 لوحة ، مكتوبة بخط مغربي ظاهر ، والمجلد الآخر عبارة عن 215 لوحة من نفس الحجم ، وقد كتبت بنفس الخط المغربي الواضح

وهذه النسخة برقم 2195 . النسخة الثانية : وتشتمل على السفريين الرابع والخامس من ((الريحانة)) ، وعدد لوحاتها 145 لوحة من الحجم الصغير ورقمها 600 ، الثالثة : عبارة عن النصف الثانى من ((الريحانة)) ، وتحتوى على الاسفار الرابع والخامس والسادس ، وتقع فى 186 لوحة ، الرابعة : قطعة صغيرة ضمن مجموع يتألف من 28 لوحة وتشتمل على السفر الاول من الريحانة والخاص بالتحميدات ومقدمات الكتب الخاصة بابن الخطيب ، وهى متأكلة وقديمة ، وتحمل رقم 4585 . الخامسة : عبارة عن مجلد قديم ، يحتوى على 174 لوحة كبيرة ، به نقصان من اوله ومن آخره ، يبدأ بنهاية الفصل ذى العنوان (جمهور الاغراض السلطانية) ويشكل هذا المجلد بمشتملاته الجزء الثانى من النسخة الكاملة ورقمه 437 . السادسة : قطعة من الريحانة ذات حجم متوسط عدد لوحاتها 57 لوحة ، وتشتمل على السفر الثالث ، وقد كتبت بخط مغربى ، ورقمها 1207 ، والسابعة والاخيرة مجموعة من الاوراق البالية تشتمل على 40 لوحة كبيرة ، قد كتبت على الصفحة الاولى منها ((السفر الثالث من ريحانة الكتاب)) ، وفى نهاية اللوحة الاخيرة عبارة ((كمل السفر الخامس)) ورقمها 6400 .

9 — وهناك نسخ اخرى تحتويها المكتبات الخاصة ولاسيما فى المغرب ولا يتسنى للباحث الاطلاع عليها فى يسر وسهولة ، كما هو الحال فى بعض المكتبات التى أتينا على ذكر ما ورد بها من نسخ ((الريحانة)) وقد رأيت سفرا منها مصادفة فى مكتبة صديقى الاستاذ عبد الكبير الفهرى الفاسى بالرباط ، وتصفحتها فوجدت الجزء الخاص بالرسائل السلطانيات ، وخاصة منها ما يمثل العلاقات السياسية التى كانت سائدة بين الحفصيين وبين ملوك بنى نصر ، فى منتصف القرن الثامن الهجرى .

وانما أفضت الحديث فى استعراض ما يتعلق بالنسخ التى تقصيتها من الريحانة هنا وهناك لأمري :

1 — أن مدار البحث حول كتاب ابن الخطيب ((أوصاف الناس فى التواريخ والصلات)) وهو جزء من ((الريحانة)) ، ويمثل السفر الاخير منها ، حيث يختتم المؤلف هذا المؤلف الضخم ، بعد الاوصاف — بكتب الزواجر والعظات .

2 — أننى استخرت المولى — جلت قدرته — وعكفت منذ وقت ليس بالوجيز على تحقيق هذا المؤلف الادبى التاريخى الكبير ((الريحانة)) ، وقطعت فى ذلك شوطا ليس باليسير ، حتى وفقنى الله الى تحقيق الاجزاء التالية منه ، وهى :

- 1 — الرسائل السلطانية (وتمثل القدر الاعظم من الكتاب)
- 2 — معيار الاختيار (تحقيق جديد به زيادات ، مع دراسة نقدية)
- 3 — أوصاف الناس (موضوع هذا الكتاب)
- 4 — الاشارة آداب الوزارة (تحت الطبع)
- 5 — مقامة السياسة (تحت الطبع)
- 6 — كتب الزواجر والعظات (نشرت جزءا منها بالدوريات العلمية بالمغرب) وهى ملحق هذا التحقيق والدراسة .

وتتمة للفائدة فقد رايت الحاقها بـ ((الاوصاف)) كاملة ، خاصة وان ابن الخطيب جرى في موضوعها ومنهجها على نفس المضمار للاوصاف وقد بلغت عشرين لوحة من نهاية مخطوط ((الريحانة)) ، وهى عبارة عن أربع رسائل بهذا المضمون ، اولها كتبها لسان الدين ابن الخطيب الى معاصره الخطيب ابن مرزوق ، وهى الرسالة الوحيدة من بين الاخرى التى نص في ديباجتها على اسم صاحبها ، أما الثلاث الاخر فقد تعدد اغفال ذكر أصحابها ، مكتفيا بقوله في بعضها ((الى بعض الفضلاء)) ، وفى البعض الآخر لم يذكر شيئا من هذا أو ذاك . وقد سطر المؤلف رسائله هذه عامة بما طبع عليه فى هذا المجال من جنوح الى المحسنات البديعية ، قد تكلف أثناءها هذه القيود اللفظية ، مضمنا اياها الكثير من أبيات الشعر ، منها ما ينسب اليه ومنها ما جاء به اقتباسا فى مناسباته . والغاية التى قصد اليها فى الجملة هى الترغيب والترهيب والتزهيد فى متاع الدنيا ، مستشهدا فى كثير من أفكارها بأحداث الدهر ونكباته ، جاعلا من تجربته الشخصية مجالا للتنظير فى هذه الحياة ، واضعا هذه التجربة فى متناول الاستيعاب ، عبرة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ، وسنلاحظ من خلال عرض هذه الرسائل مقدار الصلة التى كانت تربط ابن الخطيب بمعاصريه الذين حرر اليهم هذه الكتب الفريدة ، فهم بين وزراء وقضاة وكتاب ، قد جمعتهم الاحداث التى عاشوها وعاشوها ، بل لقد مر كل منهم بما يشبه فى الجملة نفس الظروف التى مر بها الآخر .

وفيما يتصل بأغراض ((كتب الزواجر والعظات)) هذه نرى أن تلك الأغراض قد سبق بها ابن الخطيب من أدباء وشعراء المشرق ، وخاصة ابان العصر العباسى كما سنذكر ، بل ان التذكير بالآخرة وحث الهمم للتزود لها ، والاشعار بالوعد والوعيد فى يوم الحساب ، كل هذا وأمثاله قد طرقه أدباء العرب الجاهليون ، ومنهم — على سبيل المثال — فى الميدان الخطابى

((قس بن ساعدة الايادي)) والمعروف بخطبته الشهيرة التي منها ((ايها الناس، اسمعوا ، وعوا واذا وعيتم فانتفعوا ، من فات مات ، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت)) .. الى آخر ماجاء بها من هذا المضمون، حتى كان العصر العباسي بطفیان مظاهر الحضارة والمدنية ، وانفماس السواد من الشعوب الاسلامية في ملذات الحياة ، مما دفع بطبقة خاصة من الادباء والشعراء — ولاسيما الفلاسفة منهم — الى الجنوح نحو أدب الحكمة والموعظة وتذكير الناس بيوم الحساب ، وقد اشتهر من بين هؤلاء ((أبو العتاهية)) اسماعيل بن القاسم (103 — 211 هـ) في عصر الرشيد ، ثم الامين والمأمون ، فقد عد ما قاله في الزهد والامثال من أجود ما قال ، ويمتاز عن غيره — في هذا اللون — بقلّة تكلفه ، وسهولة الفاظه ، حتى كادت تخرج الى حد الابتذال ، ولما سئل في ذلك كانت حجة انه يقصد الى العظة والزهد ، فينبغي ان يكون شعره مفهوما لدى الناس على السواء ، وقد اقتفى أثره في ذلك بعض الشعراء في المشرق والمغرب ، فمن قوله يعظ الرشيد :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس	واعلم بأن سهام الموت قاصدة
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها	ولو تسترت بالابواب والحرس
لكل مدرع منا ومتـرس	ان السفينة لا تجرى على اليبس

وعليه ، فيمكن اعتبار لسان الدين ابن الخطيب من الادباء الذين تأسوا في هذا اللون الادبي بأبي العتاهية وأضرابه ، وكان مما أفاض به في ذلك الرسائل الادبية التي بعث بها الى الخواص من اصدقائه المعاصرين ، والتي نحن بصدد البحث فيها الآن ، مضافا الى هذا أشعاره التي نظمها — في نفس الغرض — في المناسبات الخاصة ، ومنها قصيدته قبيل مصرعه ، حينما توقع مصيره المحزن :

بعدنا وان جاورتنا البيوت	وجئنا بوعظ ونحن صموت
وانفاسنا سكنت دفعة	كهجر الصلاة تلاه القوت
وكنا عظاما فصرنا عظاما	وكنا نقوت فما نحن قوت
وكنا شموس سماء المـلا	غربن فناحت عليها البيوت
فكم خذلت ذا الحسام الطبا	وذا البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة	فتى ملئت من كساه التخوت

فقل للعدا ذهب ابن الخطيب فقل يفرح اليوم من لا يموت
فمن كان يفرح منهم له فقل يفرح اليوم من لا يموت (1)

ومن المقرر أن الانسان يتأثر بالنصيحة كما يتأثر بالبيئة المحيطة به ،
وأحيانا تجد النصيحة الاذن والقلب الراعيين فتعمل عملها ، ولهذا نجد القرآن
الكريم والسنة النبوية تنصحان المؤمنين ، فأمر كلاهما بالعدالة والصدق
والعفة وما الى ذلك ..

((ولامر ما اتفقت الامم وحكماءها على العناية بالنصائح ، فالحكيم
قس بن ساعدة له نصيحته المشهورة ولقمان الحكيم نصح ابنه كما هو مذكور
في القرآن ، وملوك الفرس نصحوا الناس بنصائحهم المسماة ((جويدان خرد))
ولست اذهب بعيدا ، ففي القصص العربي أن عبد الله بن الزبير ومصعب
ابن الزبير وأبا جعفر المنصور تذكروا أبياتا من الشعر ، فتشجعوا ورموا
بأنفسهم في حومة القتال بعد أنشائها . . (2) .

ولا نفعل الإشارة — بهذه المناسبة — الى أن كتب ((الزواجر
والعظات)) قد كانت خاتمة مؤلف لسان الدين الادبي التاريخي ((ريحانة
الكتاب ، ونجعة المنتاب)) وذلك في كافة نسخها المتكاملة ، وحيث يشير
المؤلف بنفسه الى ذلك بقوله :

((تم الكتاب بحمد الله المعين ، وبتمامه كمل جميع الديوان ، والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم الانبياء والمرسلين ، صلاة تحل العقد،
وتفرج الكرب ، آمين رب العالمين ، وسلم كثيرا الى يوم الدين (154 : 1)))

ونعود — بعد هذا الاستطراد الوجيز — لنذكر أن الاعتماد في تحقيق
ودراسة ((اوصاف الناس)) موضوع هذا الكتاب وكذا ((الزواجر والعظات))
قد وقع على نسخة الاسكوريال للريحانة بمدير (1835 الفزيري) وقد
وقعت لوحات ((الاوصاف)) من بين الكتاب في 65 لوح من القطع الكبير ،
ومسطرتها 15 سطرا بكل صفحة من لوحاتها المزدوجة .

1 ابن خادون في « العبر » ج 7 ص 342 والمقرى في « ازهار الرياض »
ج 1 ص 231 .

2 احمد أمين في كتابه « الى ولدي » ص 163 — 154 ، بيروت ط 3 عام
(1969) .

وبعد ، فالى الباحثين والدارسين من المشتغلين خاصة بتراثنا
الاندلسى المغربى أقدم كتاب ((أوصاف الناس فى التواريخ والصلات)) آملا
أن أكون بهذا التحقيق قد أسهمت — بالقدر الذى توفرت عليه فى هذا المجال —
بلجنة أخرى فى هذا التراث التليد ذى الطرافة التاريخية المنشودة خلال تلك
الفترة من فردوسنا المفقود .

وما توفيقى الا بالله ،

دكتور

محمد كمال شبانة

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعات المغرب

المغرب فى

غرة جمادى الثانية 1397 هـ
20 مايو 1977 م

المؤلف

لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد ، السلماى الاصل ، اللوشى الولادة ، الفرناطى التربية والمرتع ، المغربى النزوح والوفاة .

ولد — رحمه الله — بمدينة لوشة LOJA فى 25 رجب 713 هـ (16 نوفمبر 1313 م) ، وتربى فى أحضان أسرته التى عرفت بالاصالة علما وجاها ، ونشأ فى العاصمة غرناطة ، حيث تلقى بها دراسته على أيدي جهابذة العلماء والادباء يومئذ ، فقد كانت العاصمة النصرىة حينئذ أعظم مركز للدراسات العلمىة والادبىة فى ذلك الجزء الغربى من العالم الاسلامى .

وكان من الطبيعى أن يتأثر لسان الدين سياسىا بحكم منصب والده ، الذى شغل وقتئذ منصب الوزارة فى بلاط ملوك بنى نصر ، حيث وزر للسلطان يوسف بن اسماعيل ابن الأحمر (733 — 755 هـ / 1333 — 1354 م) فلما توفى الوالد دعى ابن الخطيب الابن ليشغل منصب أبىه وهو فى ريعان الشباب (28 عاما) كأمين سر أولا لاستاذة رئيس ديوان الانشاء أبو الحسن على ابن الجياب ، ثم تقلد ديوان الانشاء بعد وفاة شاغله ، واطهر من البراعة والكفاءة فى هذه المناصب ما جعله أهلا لثقة السلطان المذكور ، ويتحدث ابن الخطيب عن تلك الفترة فى ((الاحاطة)) فىقول ((فقلدنى السلطان سره ولما يستكمل الشباب ، ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السفارة الى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى الى بخاتمه وسيفه ، واأتمنى على صوان حضرته ، وببيت ماله ، وسجوف حرمة ، ومعقل امتناعه (1))) وبهذا يصح أن نطلق على هذه الفترة من حياة ابن الخطيب السياسىة خاصة الفترة الذهبىة (741 — 755 هـ / 1340 — 1354 م) وكانت فى فجر حياته ، وعنقوان شبابه .

(1) المقرى فى « نفح الطيب » ج 3 ص 44 .

ولما توفي سلطانه يوسف الاول يوم عيد الفطر 755 هـ (1354 م) وخلفه في الملك ولده الفنى بالله محمد الخامس ، أبقى هذا على وزير والده ابن الخطيب في بلاطه ، وأسفره بدوره الى سلطان المغرب يومئذ أبى عنان المريني عام 755 هـ ، أى عقب توليه مقاليد أمور المملكة ، فحقق لسان الدين نجاحا ملحوظا في تلك السفارة ، ولعل أبرز مظاهر هذا ما كان من توثيق عرى الصلات بين غرناطة والمغرب ، وتوالى العون الحربى من فاس ، لمقاومة أطماع قشتالة وأراجون النصرانيتين للاستيلاء على آخر معاقل المسلمين يومئذ ((غرناطة)) .

وهكذا احتل ابن الخطيب مكانة مرموقة من بلاط الفنى بالله ، حيث جمع في عهده بين وزارة القلم ووزارة السيف ، فلقب بـ ((ذى الوزارتين)) ، ويمكن اعتبار هذه الفترة امتدادا للفترة الذهبية من حياته ، فقد نوه بها صاحبنا في ((الأحاطة)) أيضا ، فقال . ((ولما هلك السلطان (يعنى يوسف الاول) ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى ، الى أن كانت عليه الكاينة ، فاقتدى في أخوه المتغلب على الامر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم حملة أهل الشحاء من أعوان ثورته على القبض على ، فكان ذلك . . وتقضى على ، ونكت ما أبرم من أمان (2))) .

ويرمى لسان الدين بـ ((الكاينة)) المذكورة الى تلك الثورة التى تزعمها اخو السلطان الفنى بالله والمسى الأمير اسماعيل ، فكان من نتيجة ذلك نفى ابن الخطيب مع سلطانه المخلوع الى المغرب ، وبقي به قرابة ثلاث سنوات (760 - 763 هـ / 1358 - 1361 م) بمدينة سلا ، حيث انقطع للبحث والتأليف ، بعد أن وفر له بنو مرين يومئذ وسيلة المقام أمانا ورغد عيش ، فكانت هذه الفترة من حياة مؤرخنا فترة الخصوبة الثقافية ، ولعل من مظاهرها مؤلفاته وأبحاثه طيلة هذه المدة .

وعاد السلطان الفنى بالله مرة أخرى الى الاندلس اثر انقلاب ضد أخيه ((المتغلب على الامر)) ، وتربع على العرش من جديد بدعوة من الثوار الجدد ، ونادى وزيره ورفيق النفى ابن الخطيب ، فوصل هذا الى ((غرناطة)) ليحتل سابق حظوته ، بيد ان تلك الخطوة لم تدم طويلا ، فقد شعر لسان الدين بما كان يحاك حوله من دسائس ، وينسج من سعايات للايقاع بينه وبين الفنى بالله ، الأمر الذى اضطر معه وزيرنا الى أن يحزم أمره على مفادرة الاندلس ، ثم اللجوء الى المغرب نهائيا ، وكان منه ذلك على صورة فتحت الباب على مصراعيه للمتقولين والمناهضين له ، فقد استأن ابن الخطيب

(2) المصدر السابق .

السلطان في التفتيش على الشواطئ الاندلسية ، مما أوغر صدر الفنى بالله عليه ، اذ تبين خديعته ..

وحل ابن الخطيب لاجئا سياسيا على المغرب ، وكان على عرشه حينئذ السلطان أبو سالم المريني ، حيث أكرم وفادته ، وأقطعه الاراضى ، ورتب له الرواتب ، ولكن تقلبات الاحداث بالمغرب منذ ذلك الحين ، واسهام ((غرناطة)) في جوانب من هذه التقلبات ، بغية اقضاء بعض الامراء المرينيين المناهضين لسياسة بنى الاحمر ، ثم ما كان من تتبع بلاط بنى نصر لخطوات لسان الدين ومطالبتهم برأسه ...

كل ذلك كان كفيلا في النهاية — عندما واثت الظروف لصالح السلطان الفنى بالله في فاس — بأن يقبض على ابن الخطيب وتكون عاقبته على النحو المعروف ، من مساءلة حول ما اتهم به من زندقة وما ألصق به من الحاد ، فكان أن أفتى الفقهاء بموته شرعا ، وكان هذا في أواخر عام 776 هـ ، حيث خنق بمحبسه ، ثم أحرق ، ودفن — رحمه الله — قرب باب المحروق (لانسبة بين اسم هذا الباب ومصرع ابن الخطيب) في فاس . وقد أمكن للمقـررى صاحب ((نفح الطيب)) الاستدلال على القبر بعد فترة من الحادث المؤسف .

هذا ، ويعد ابن الخطيب موسوعة علمية نادرة ، ولاسيما في اخريات العصر العربى بالاندلس ، ومؤرخا يكاد يكون فريدا ، وخاصة في فترة عزها فيها التاريخ بفعل الاضطرابات التي كانت تجتازها الاندلس بالذات يومئذ . وناهيك بمؤلفاته العديدة — المتنوعة (3) والتي قاربت الستين ، بيد أن ما قدر له أن يبقى منها يقل عن هذا ، وقد نشر بعض منه تراثا انسانيا أفاد منه الباحثون شرقا وغربا ، فكان لسان الدين بذلك حقيقا بتنويه المستشرقين والمؤرخين القدامى منهم والمحدثين .

(1) راجع ذكر كتبه في « الاحاطة » .

البَابُ الأول

أوصاف الناس في التواريخ والصلوات

القسم الأول

وتتبعني العطار وتلاية بكلا القطار وخنايبه حضا
الشمس وتقصص شعرا الدكار وتخبها الله وتضارها

أوصاف الثامن

في التواضع والصلافة

عاطف رخيص ما تبني كتاب القاصح المخلص

مخلصة الفرج العلقم وضعه في خفيها الركن

علمه غلام وتلاية شيوخ كاشلهم تخرج العباد

في رعايتهم وتلاية جنة الله والتواضع بابه وتلق

نور القدر في القبر تخرجهم من الدنيا ووافها والحب

الذي تائه تكميع ابيه اشتوا فينا وتغير اتي دعاهما حتى

خلق الطير في القبر تخرجهم من الدنيا وتغير نفاقها وثق

التي تائه تكميع ابيه اشتوا فينا وتغير اتي دعاهما حتى

خلق الطير في القبر تخرجهم من الدنيا وتغير نفاقها وثق

أزهر وكما بالنا قلا تبيع قنطرة ملوك كراياض

بالنظام ومن شله جليل في الجاه ويحانا الرخاوي قانا

تخار الزفر عذرت لا حكمي ورضعت لك المنة وتوكل

غزيرين وتخل قضا فيهم لدا ان تخرج المنة وتوكل

القصور وما اعتقه الفم وتوشت الخلف من المنة وتوكل

ما يوقع في عفرين وتاثير القدر كالحق الله انسي

تتبعني وتغير القدر في القبر تخرجهم من الدنيا وتوكل

من المملوك والناظر المراه تخرج القدر تخرجهم من الدنيا وتوكل

عني وتغير القدر في القبر تخرجهم من الدنيا وتوكل

تلافا وتغير القدر في القبر تخرجهم من الدنيا وتوكل

وسفر رجلا وتغير القدر في القبر تخرجهم من الدنيا وتوكل

أوصاف الناس في التواريخ والصلوات

(71 . ب) فمن ذلك (1) ما صدر عنى مما ثبت فى كتاب :

التاج المحلى ، فى مسألة القدح المعلى (2)

1 - جعفر ابن الزيات

علم الاعلام ، وخاتمة شيوخ الاسلام . تجرد للعبادة فى ريعان شبابه ، ولازم جناب الله وأكثر الوقوف ببابه . ولم تنزل الفتوحات القدسية تعرض عليه أذواقها ، والمحبة الربانية تصلح لديه أشواقها ، وتدير لديه دهاقها ، حتى خلع لباس هذه البدنيات ونزع نطاقها ، وبث فى أسباب هذه الاكوان ذوات الالوان ، وأزعم فراقها . فأصبح فردا تشير اليه الابصار ، وتنتال ببركته الاوطار ، وتحدى لرؤيته القطار .

- 1 اسم الاشارة يعود الى ما اشتمل عليه مؤلفه « الريحانة »
- 2 هذا الكتاب لابن الخطيب عبارة عن مختصر لتاريخ مملكة غرناطة منذ تأسست على يد زعيم بنى نصر (محمد الاول ابن الاحمر) حتى عصر المؤلف ، بالاضافة الى تراجم لاعيانها المعاصرين له ، كما يترجم فيه ابن الخطيب لنفسه ولوالده . ويوجد جزء من « التاج المحلى » فى المخطوط رقم 554 (فهرست الفزيرى) بالاسكوريال ، ويمثل هذا الجزء المخطوط 53 لوحة من 71 الى 132 . وفى الخزانة العامة بالرباط توجد طائفة من تراجم « التاج المحلى » بالمخطوط رقم 1102 ضمن آثار أخرى له يضمها المجموع الذى عنوانه « مجموع مراسلات وتراجم ابن الخطيب » .

أما « القدح المعلى » فهو لابن سعيد الاندلسى (ابن الحسن على بن موسى) المتوفى عام 73 هـ وهو يتناول بالترجمة طائفة لا بأس بها من علماء وأدباء الاندلس الذين قضى جلهم خلال النصف الاول من القرن السابع الهجرى ، وقد نشر « القدح المعلى » بعناية المحقق الاستاذ ابراهيم الابيارى بالقاهرة عام 1959 م .

ودعى الى السفارة في صلاح المسلمين (72 . أ) فأجاب ، وسعى
في انخماذ الفتنة فانجلى ليلها وانجاب ، وأعمل في مرضاة الله — الاقتاب،
وخاص العباب .

وكان ببليش (3) ببلده منتجع رائد ، ومعدن غرائد . وفجر الله
ينابيع البلاغة على لسانه ، وجعل زمام الفصاحة طوع لسانه . فدون
بالنظم في شتى الفنون ، وجلى المعارف مفوفة المطارف للعيون . فكلن
يقعد بمسجدها الجامع فيدرس ويخلق ، ويهذب ويخلق . فيأتى من
الاعراب بالاغراب . ويتكلم في التفسير بغير اليسير ، ويلمح من التعليل
لا بالقليل . ويشير الى فريقه برموز طريفه .

ولما نادى به منادى فراقه ، وغيب الدهر نور اشراقه — بكت
عليه الربوع دما ، وأصبح وجودها عدما .

وقد أثبت من آدابه وشعره « في التاج المحلى » (4) ما يدل بسعه
صدره ، ويدل على قدره .

3) توجد ثلاث مسميات لثلاث مدن متوسطة بهذا الاسم ، أولاها — ولعلها التى
يفصدها المؤلف — « بليش مالقة » الاسبانية Velez Malaga وموقعها غرب
مالقة على مسافة 34 كم ، وقد أوردها ابن الخطيب في كتابه « معيار الاختيار »
واصفا لها بعد وصفه « مالقة » والمدينة الثانية هى « بليش الشقراء » وتدعى
في الاسبانية Velez Robio وموقعها قرب مدينة لورقة ، وقد وصفها
المؤلف أيضا في « المعيار » .

أما الثالثة فتسمى « بليش البيضاء » وتعرف في الاسبانية Velez Blanco
وهى قرب الثانية وقد تكون أحدث الثلاثة .

4) هكذا سيكون مسلك ابن الخطيب لمن يترجم لهم جميعا بدءا من « جعفر ابن

الزيات » حتى نهاية الكتاب في الاحالة على كتابه « التاج المحلى » فيما يتصل
بآثار المترجم لهم من نثر أو نظم أو خطب جادت بها قرائحهم ، ولهذا سنحاول
— قدر الاستطاعة — ان نورد شيئا من هذه الآثار اقتباسا من « التاج » أو
غيره لمن عنى بأمثال هؤلاء مترجما لهم .

ومن ذلك في وصف :

2 - أبى الحسن القيجاطى

(72 . ب) أخطب من سعد المنابر وارتقاها ، وأفصح من هذب
العبارة وألقاها ، واستجادها وانتقاها . نجم ببلدية الشرق ، وتألق في
أفقها تألق البرق . ولم تنزل رتبته في ارتفاع حتى استأثرت الحضرة (5)
به على ما سواها ، فاحرز فيها الغاية وحواها ، ونشر معارف المطارف
وما طواها . فنفق للادب سوقا ، بسقت فروعها بسوقا ، وقلد بحر
العصر من عقود دراهم سوقا .

ثم تقدم خطيبا بمسجدها الجامع ، فقرط بألفاظه الرائقة عاطلة
المسامع ، وأسأل بمواعظه البالغة درر المدامع . وهو منجد الحلبة
ومخرجها ، وموقد الأذهان وسرجها .

خبا - بوفاته للعلم - كوكبه الثاقب ، وووريت بمواراته المفخر
والمناقب . وله نظم تعطرت المجالس بجرياله ، وتعلقت المحاسن
بأذياه . ونثر حسدت عقود الغانيات درره ، وغارت النجوم الزهر
لما اجتلت غرره .

(5) الحضرة . العاصمة ، وهى يومئذ غرناطة النصرية ، نسبة الى بنى نصر
المعروفين ببنى الاحمر ، حكموا مملكة غرناطة ما يربو على مائتين وخمسين
عاما (635 - 897 هـ / 1238 - 1492 م) ومؤسسها محمد ابن يوسف
بن الاحمر ، وآخر ملوكها أبو عبد الله محمد على بن سعد بن محمد بن يوسف
النصرى .

انظر : تحقيقنا «كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان» ، لابن الخطيب ص : 16 -
24 (القاهرة 1966 م) .

ومن ذلك في وصف :

3 - أبى اسحاق بن أبى العاص

حابق حلبة العلم والدين ، والمستولى على قصب السبق في تلك
الميادين . أتت طريف (6) منه بطرفة رائقة ، وأغرب منه هذا المغرب
بروض تحسد الرياض حدائقه . ورد على هالتها أبرارا . وانتظم - لأول
حلولة - في طبقة الكتاب والعود قشيب ، وفود الوقت لم يرعه للمقت

(6) طريف - Tarifa مدينة أندلسية تقع على لسان يمتد في البحر الأبيض المتوسط من الناحية الجنوبية الغربية لاسبانيا في مواجهة مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras التي تقع في الجهة الشرقية ، وبين المدينتين هضاب وسهول تفصلها بعض الأودية الصغرى . وتعتبر طريف أول بقعة أندلسية حل بها العرب منذ أن تطلعت انظارهم الى فتح شبه الجزيرة الأيبيرية ، فقد حدث خلال عام 91 هـ (710 م) ان جازت البحر من سبتة حملة اسلامية صغيرة قوامها 400 محارب كبعثة كشف واختبار أرسلها من المغرب موسى بن نصير بقيادة أحد مواليه من البربر ، واسمه طريف بن مالك ، فنزل هذا القائد الرسول برجاله في المنطقة المقابلة لمدينة سبتة المغربية من جهة الغرب ومنذ ذلك الحين والمنطقة تعرف باسم قائد هذه البعثة العسكرية .

وطريف كمدينة أندلسية لها تاريخها التليد من حيث موقعها البحرى الهام ، ذلك الذى أهلها لان تكون ابان العصر الاسلامى محطا « استراتيجيا » هاما لنزول المغاربة المحاربين ، شأنها في هذا شأن جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وقد لبثت هكذا مدينة حربية حتى سقطت في أيدي الاسبان في المعركة الشهيرة « معركة طريف الكبرى » La Batalla del Salado التى هزم فيها الاندلسيون والمغاربة (جمادى الآخرة 741 هـ = 30 أكتوبر 1340 م) .

من آثار طريف الاندلسية بقايا ضئيلة متفرقة من السور القديم ، كالجزة الذى يمتد الى اليسار من باب شريش وبه عدة كوى صغيرة ، وجزء آخر موقعه تجاه الحصن العربى ، وجزء ثالث من السور يلاصق منتزه المدينة . أما الحصن فيغلب على الظن أنه من بقايا القسبة العربية لعقوده ذات الطراز العربى ، وهو يشرف على البحر من الناحية الخلفية للمدينة .

راجع . السلاوى في « الاستقصا » ج 3 . 136 وما بعدها ، ورحلة الغزال الفاسى ، ص 16 ، والمقرى في « النفح » ج 3 ص 96 وما بعدها .

مشيب . والربع آهل والوارد في الرفد ناهل . متميز بخصائصه الحسنى ،
وتأهل للمحل الاسنى . وقعد للجملة بعد فقد صدرها ، وأفول بدرها ،
وحلول شمسها في رمسها .

وخلف أستاذها ابن الزبير خير خلف ، وأصبحت لشأنه من أنشد
فيه « انما الدنيا أبو دلف » (7) وصعد المنبر فجلت الخطوب خطبه ،
وهز منه الجزع فتساقطت رطبه . فأبكى العيون الجامدة ، واثار العزائم
الخامدة . وأخذ بقلوب الدهماء فاستمالها ، وبلغ منهم الغاية التى أراد
ونالها . وحمل نفسه بآخرة الى الجود ، والاتيان بالحاضر الموجود .
(73 : ب) فكان للفقراء عالا ، وللمعتفين (8) قالا ، وللعصر وأهله زينا
وجمالا .

وقضى لسبيله — رحمه الله — فقيدا أسال الغروب ، وهاج
— للاشجان — الحروب .

وكان له أدب أنيق الشارة ، حسن الاشارة .

(7) هذه العبارة شطر من قصيدة للشاعر العكوك بن جبلة ، حيث يقول :

انما الدنيا أبو دلف بين مغزاه ومختصره
فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره
وأبو دلف هذا هو القاسم بن عيسى بن ادريس العجلي ، أمير الكرخ ، وسيد
قومه واحد الاجواد الشعراء ، كان من رجال الرشيد وابنه المأمون . وقد عقد
له الكاتب ابن طيفور جزءا خاصا فى كتابه (بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية)
عند حديثه عن المأمون ، توفى « أبو دلف » هذا عام 226 هـ .

(8) المعتفون . هم من يتعففون عن سؤال الناس رغم الحاجة ، وقد أشار اليهم
القرآن الكريم فى قوله تعالى « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » .

ومن ذلك في وصف :

4 - أبى القاسم بن جزى (9)

مجتهد عاكف ، وروض فنون جاده من العلم كل واكف . أقام رسم مجده ، ورفع عمد بيته ، في قمة العلم ونجده ، فأصبح صدر بلده ، وأنجب خلفين كريمين من ولده . وفرغ للعلم من جميع أعماله ، وتنفياً رياض دواوينه عن يمينه وشماله ، واقتصر على طلب كماله ، مع وفور ضياعه ونمو ماله . فدون الكثير وصنف ، وقرط المسامع وشنف . وترقى الى الخطابة - وهى ما هى من جلال الرتبة ، وسمو الهضبة - ففرع سنامها ، ورفع أعلامها ، وغض شبيبته ناضر ، وزمن فتائه حاضر . فوقع عليه الاتفاق ، وانعقد - على فضله - الاجماع والاحقاق .

ولم يزل يسلك طريق المجتهدين ، فدون في الفقه والدواوين . وسفر في علم اللسان عن وجه الاحسان . ورحل في علم التفسير الى كل طية ، وركض في أغراضه كل مطية ، حتى أنشأ الزمخشري (10) وابن عطية (11) .

وله - من الادب - حظ وافر ، ومذهب عن - الحسن - ساغر .

(9) أحد شيوخ المؤلف لسان الدين ابن الخطيب ، وممن تتلمذ عليهم في ميدان الخطابة خاصة . وقد ترجم له الامير اسماعيل ابن الاحمر ، في « نثر فرائد الجمان » والمقرى في « النفح » وغيرهما .

(10) أنظر « يوسف الاول ابن الاحمر » تأليف المحقق ، ص 60 (القاهرة 1969 م) . هو الشيخ أبو القاسم محمود المعروف بالزمخشري ، نسبة الى احدى قرى خوارزم والمولود بها عام 1075 . وهو امام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير ، كان معتزلى الاعتقاد ، من تأليفه « المفضل في النحو » و « الفائق في غريب الحديث » و « أساس البلاغة » وأخير « الكشف عن حقائق التنزيل » وهو تفسيره الذى اشتهر فيه بآرائه الاعتزالية خاصة .

(11) سيفرد له المؤلف فيما بعد ترجمة مستقلة .

ومن ذلك في وصف :

5 - أبى البركات البليقي (1)

واحد الفئة ، وصدر صدور هذه المائة . ورجل الحقيقة وابن

(1) هو قاضى الجماعة الشيخ محمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن خلف السلمى أبو البركات بن الحاج البليقي ، والنسبة الى « بليقي » حصن بأحواز مدينة المرية جنوب شرق الاندلس . يتصل نسبه بحارثة بن العباس بن مرداس ، نشأ بالمرية منزويا ، متعبدا ، عبر البحر الابيض المتوسط الى بجاية ، حيث التقى بالعلماء من معاصريه ، فأخذ عنهم ، لا سيما استاذ العصر ابا على منصور بن أحمد بن عبد الحق المزالى ، ثم تحول الى مراكش ونواحيها ، ثم اقام فترة بسبته ، واخيرا عاد الى الاندلس ، فاشتغل بالتدريس والقضاء والخطابة بادية الامر بمدينة مالقة أوائل عام 735 هـ (سبتمبر 1334 - 20 أغسطس 1335 م) ، ثم تولى القضاء في بلاد أخرى ، حتى نقل الى غرناطة قاضيا للجماعة في 23 شعبان عام 747 هـ (6 فبراير 1347 م) ثم صرف عن القضاء بغرناطة حيث ارتحل الى المرية ، وتقلد نفس المهنة أوائل رجب 748 هـ (أكتوبر 1347 م) ثم أعيد الى العاصمة مرة أخرى في اواخر رجب 756 هـ (أغسطس 1356 م) ، وخلال هذه الفترة كثيرا ما انتدبه السلطان أبو الحجاج يوسف الاول سفيرا الى معاصريه من الملوك المسلمين ، ولابن الحاج مؤلفات عديدة ، ولكن معظمها غير تام أو غير منقح في مبيضات ، كما روى عن نفسه ، حيث جاء في « الاحاطة » قوله معللا ذلك : « وقد ذهب شرح الشباب ونشاطه ، وتقطعت أوصاله ووصل رباطه ، وأصبحت النفس تنظر في هذا كله بعين الاهمال والاغفال ، وقلة المبالاة التي لا يصل بها أحد الى منازل الرجال . وهذه الاعمال لا ينشط اليها الا المحركات التي هي مقصودة عندي » وهكذا يمضى في سرد الدوافع المفقودة عنده لابرار مؤلفاته الى عالم الوجود ، ولعل الاحداث التي عاصرها وما لابسها منها قد أملت عليه هذا الاتجاه نحو السلبية . ولابن الحاج القصائد المطولة ، نظمها في أكثر من غرض ، وخاصة في الوعظ والارشاد ، كما ان له باعا في النثر . وقد استقر مقام هذا القاضى مؤخرا بمدينة المرية قاضيا بها وخطيبا ، حتى وافته منيته خلال شهر رمضان من عام 773 هـ (ديسمبر 1372 - يناير 1373 م) حيث دفن بنفس المدينة . راجع : « الاحاطة » ج 2 ص 102 - 106 ، و « تاريخ قضاة الاندلس » للنباهي ص 165 ثم « يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة » للدكتور شبانة ص 79 - 82 نشر . لجنة البيان العربى بالقاهرة 1969 م .

رجالها ، وعلم هذه الطريقة وفارس مجالها ، وتحفة الدهر التي يقل لها الكفاء ، وبقية السلف التي يقال عندها : « على آثار من ذهب العفاء » .

ما شئت من شرف زاحم الثريا بمناكبه ، ومجد خفقت بنود العلم فوق مواكبه . وحسب توارثه الكابر عن الكابر ، وأصالة تأملت أرواحها بين بطولة المحاريب وظهور المنابر ونشأة سحب من العفاف ذيلا ، وغضت الطرف حتى عن الطيف ليلا . ومعرفة لا يساجل لجها ، ولا يراجع صبحها ونعمة في تلاوة القرآن ، يخر لها الناس على الاذقان .

ولما أمعن في المعارف كل الامعان ، و « منهومان — كما قال عليه السلام — لا يشبعان » تشوف الى الرحلة عن بلاده ، وزهد في طريفه وتلاده . فأخذ الحديث عن أهله ، وذهب من العلم في حزنه وسهله . وبلغ الغاية حتى رحل الى بجاية (2) وبها علم الدين وناصره (3) ، (74 ب) وروض العلم الذي أخصب جانبه وخاصره ، ففاز بلقائه ، ونهل من سقائه ، وصرف فهمه الثاقب الى القائه . فحصل واستفاد ، واقتنى من كنوز رحلته ما لا يخاف عليه النفاذ .

قدم على قدارة مجده ، قدوم النسيم الحجازي من نجده . فأشارت اليه الاحداق واشترأبت الى طلوعه الاعناق . ولم تزل بدائعه تتقلدها الصدور ، ومحاسنه تغار منها الشמוש والبدور ، والسعادة توافيه ، والخطط الشرعية تتنافس فيه ، وخطبته الان خطابة قطره وهو كفؤها وابن

(2) بجاية — بكسر الباء وتخفيف الجيم ، مدينة على ساحل البحر الابيض المتوسط بين افريقية والمغرب اختطها الناصر بن عنان بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكين عام 457 هـ (منتصف القرن الحادي عشر الميلادي) وتسمى الناصرية ، نسبة الى مؤسسها . كانت ميناء هاما للقوافل البحرية والتجارية وهي اليوم احدى المدن الجزائرية الساحلية المعروفة .

راجع : « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » للوزير لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق د. شبانة ص 79 هامش 2 نشر دار الكاتب العربي بالقاهرة 1969 م .
(3) يقصد به استاذ العصر ابا علي منصور المشدالي ، والمشار اليه في التعليقات السابقة .

أكفائها ، ومحى رسومها بعد إعفائها ، فتلقى رايتها بيمينه ، واستحقها
بسلفه وعلمه ودينه .

ومن ذلك في وصف :

6 - أبى جعفر ابن خميس

قريع صلاح وعبادة ، ورضيع ثدى دين وسجادة . كان
بالخضراء (4) بلده - رحمه الله - صدر صدورها ، وواسطة شذورها ،
وخطيب حفلها ، وامام فرضها ونفلها وبأثر حصارها ، وعانى - على
العصور - اعصارها .

75 . أ) وله دعاء مستجاب ، وخواطر ليس بينها وبين الحق
حجاب . وبركة تظهر عليه سيماها ، وديانة لا تعرف الشبهات حماها .
وبلاغة لا يشح ينبوعها ، وتتقفز من المعانى ربوعها . يدعو الفقر (5)
فيذعن عاصيها ، وينزل عصم المعانى من صياصيها .

وقضى - رحمه الله - فتغير ذلك القطر (6) لذهابه ، واظلم ذلك
الافق لافول شهابه .

ومن ذلك في وصف :

7 - أبى زكريا ابن السراج

حامل فنون جمّة ، وصاحب نفس بمعادها مهتمة ، شمر في زمن
الشبيبة عن ساقه ، واجتنى ثمرة العلم من بين أوراقه ، وجمع الكثير من

(4) هى « الجزيرة الخضراء » وتعرف اليوم فى الاسبانية باسم ALGECIRAS

(5) فقر . بكسر فتح كعبر ، والمفرد . فقرة بفتح فسكون كعبرة .

(6) يعنى بالقطر . الاندلس

مختلفاته على بعد شامه من عراقه . حتى انفسح في المعرفة مجاله ،
وشهدت له بالاجادة شيوخه ورجاله . وهو الان خطيب معقل الجبل (7)
— حرسه الله — على طريقة غربية ، وحالة من الله قربية ، ملازم لظل
جداره ، منقبض في ركن داره ، ذو همة يحسدها (75 . ب) النجم
على بعد مداره ، ورفعة مقداره .

لقيته والحال سقيمة ، والحملة — بظاهر جبل الفتح — مقيمة (8) ،
والعدو في العدوان متبصر ، والكفر محلق وحزب الهدى مقصر (9) .
فرأيت رجلا بادي السكينة والوقار ، ناظرا للدنيا بعين الاحتقار ، زاهدا
في المال والعقار ، صاحب دمة مجيبة ، ومجالسه عجيبة . فكان لقاءه
فائدة الرحلة العظيمة العنا (10) وموجبا لها حسن الثنا . وله قسم من
البلاغة وافر ، رحمة الله عليه .

(7) يعنى به : جبل طارق .

(8) يرمى بذلك الى الحملة التي قادها الفونسو الحادى عشر القشتالى ، حين حاصر
جبل طارق الذي كان ممتنا بحامية مغربية قوية ، واشتد الحصار يوما بعد
يوم ، وجاء يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة فرابط بجيشه خلف جيش
النصارى ، ولبت الوضع الحربى تجاه الجبل على هذه الحالة ، حتى انقضى
عام كامل على هذا الحصار . ثم يتدخل القدر لصالح المسلمين ، ذلك ان الوباء
قد تفشى بين جنود النصارى وقضى على ملك قشتالة في مقدمة من قضى عليهم
من جيشه ، الامر الذى اضطر الاعداء الى فك الحصار ، فكان هذا بشارة
بخلاص الجبل والمدافعين عنه من الداخل والخارج ، وذلك في ليلة عاشوراء
من عام 751 هـ (26 مارس 1350 م) .

راجع : مخطوط « الاحاطة » الاسكوريال 1673 ج 2 ص 382 وما بعدها .

(9) تورية لطيفة في ثوب من تعبير به اشارات الى بعض مناسك الحج .

(10) يشير ابن الخطيب بهذا الى انه كان ضمن حاشية السلطان في ذلك الحصار .

ومن ذلك في وصف :

8 - أبى جعفر ابن أبى خالد • رحمه الله

سابق لا تدرك غايته ، وبطل لا تحجم رايته ، وبليغ تترى بالافصاح
كنايته . وطلع بذلك الافق ونجم ، وطاب عارض بيانه وسجم ، وعجم من
عود البلاغة ما عجم ، فأطاعته القوافي والاسجاع ، وأداه الى روض
الاجادة والانتجاع . ولم يزل يشحذ قريحته الوقادة ويستدعيها ،
(76 . أ) ويسمع الحكم ويعيها ، حتى توفرت في البراعة اقسامه ، وطبق
مفاصل الخطاب حسامه . فطرز المهارق ووشاها وفضح أسرار البلاغة
وأفشها ، وأتى من الرسائل بالآتى السائل . الى الدين الذى لا تغمر
قناته ، والخلق الذى يرضى الله حلمه وأناته .

وهذا الخطيب وابن عمه (11) فرسا رهان ، ومقدمتا برهان ، وعلمنا
بيان ، ورضيعا لبان . لكن النثر أغلب على لسانه ، والخطابة أعرق فى
نسب احسانه .

ومن ذلك في وصف :

9 - أبى سعيد ابن لب (12)

سابق ركض ملء عنانه ، وشارق طلع في أفق أوانه . أورى له زند
الذكاء اقتداحا ، وأجال في كل فن قداحا ، فجلى في ميدان الاجادة وبرز ،

(11) لم يفصح المؤلف عن اسم هذا القريب .

(12) اسمه فرج ، من أعلام الاندلسيين ، ولد عام 700 هـ (1300 م) وتوفى عام 782 هـ
(1381 م) وهو من أشهر أساتذة مدرسة غرناطة التى أنشأها السلطان أبو
الحجاج يوسف الاول ، على يد حاجبه أبى النعيم رضوان النصرى عام 750 هـ
(1349 م) .

وطرق المجالس وطرز . فان نقل أوضح العبارة وصقل ، وان نظر وبحث ،
نشر رسم المعانى وبعث ، وان بين وعلم أقر له المنازع وسلم .

الى خلق أطيب من الراح ، وأصفى من الماء القراح . وله فى فريضة
الادب سهم ، وفى معاناة المعانى تحقيق لا يدخله وهم . (76 . ب)
وتقدم للخطابة ببعض أرباض الحضرة فوفى الرتبة حقها ، وسلك من
الديانة طوقها .

ومن ذلك فى وصف :

10 - أبى يزيد خالد ابن أبى خالد

أمام بادية ، وضارع بذكر الله فى كل رائحة وغادية ، أنس بالوحدة
والانقطاع ، وتعلل بقليل من المتاع . وانقبض وتكشف ، وقبل ثغر
الحقيقة وترشف . وأكرم به من مجموع خصل ، وضارب فى هدف القبول
بنصل . الى اخلاق بيئة الحلاوة ، ونغمة طيبة عند التلاوة ، وأدب عطر
الجريال ، موشى الطرر والاذيال .

ومن ذلك فى وصف :

11 - أبى عبد الله اليتيم (1)

مجموع أدوات حسان ، من خط ونغمة ولسان ، اخلاقه روض
تتضوع نسماته ، وبشرة صبح تتألق قسماته ، ولا تخفى سماته ،

(1) هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن على بن محمد العبدى ، ترجم له ابن الخطيب
فى (التاج المحلى) وكذا فى « الكتيبة الكامنة » ص 59 - 60 حيث ذكر له
نموذجاً رقيقاً من شعره . كما نقل المقرئ فى (النفح) بعض مراسلات بينه وبين
ابن الخطيب ج 8 ص 200 - 204 ، توفى رحمه الله عام 750 هـ .

يقرطس أغراض الدعاية ويصميها ، ويفوق سهام الفكاهة الى مراميتها . فكلما صدرت في عصره قصيدة هازلة ، أو أبيات منحطة عن الاجادة نازلة ، خمس أبياتها وذيلها ، وصنف معانيها (10 : أ) وسيلها ، وتركها سمر الندمان ، واضحوة الزمان .

وهو الآن خطيب المسجد الاعلى من مالقة متحل بوقار وسكينة ، حال من أهلها بمكانة مكينة ، لسهولة جانبه ، واتضاح مقاصده فى الخير ومذاهبه واستقل لاول مرة بالتعليم والتكتيب وبلغ الغاية فى الوقار والترتيب ، فالشباب لم ينصل خضابه (2) ، ولا سلت للمشيب عصابة ، ونفسه بالمحاسن كلفة صبة ، وشانه كله هدى ومحبة .

ومن ذلك فى وصف :

12 - أبى عبد الله الخريز الخياط حرفة

أديب على السنن سالك ، وبليغ لزمم القول مالك . كان - رحمة الله - خطيبا بثغر وبرة - تولى الله جبره ، وأعاد الى ملكة الاسلام أمره - على طريقة مثلى ، وسيرة فضلها يتلى ، اخذ فى فنون ، ومحاضر من الادب بعيون . وكان رصافى الانتحال والحرفة ، وكم بين الراح المشوبة والصرفة . ولم اظفر من نظمه - على كثرته ، وتألق أسرته - الا بأبيات ، نسبها اليه بعض (10 : ب) أصحابه ، المعتنين بنقل آدابه .

(2) خضاب نصول : حناء مزالة .

ومن ذلك في وصف :

13 — أبى عبد الله البدوي

خطيب طلق اللسان ، وأديب رحب الاحسان . تشرف بالرحلة
الحجازية ولبس من حسن الحجازية . ثم أسرع ببلده فحط لعتاده الرحل .
وأقبل اليه اقبال الغمامة على المحل ، فعظم به الاغتباط ، وتوفر تعدى — في
الخطابة — النشاط ، ولم تثن — عن الغرض فيه — الدعابة والانبساط .
وهو الآن خطيب بها يحرك المجامع ، ويقرط المسامع ، ويرسل
من الجفون المدامع . وله في العربية حظ وافر ، وفي الآداب قسم
سافر .

ومن ذلك في وصف :

14 — أبى جعفر بن فركون (14)

شيخ الجماعة وقاضيه ، ومنفذ الاحكام وممضيها ، وشائم سيوفها
الماضية ومنتضيها . كان — رحمه الله — لجا لا يساجل موجه ، وفرقدا لا

(14) هو الشيخ الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد ابن أحمد القرشي ،
احد اعلام الفقهاء بالاندلس ، طالما أسند اليه منصب القضاء فنهض بأعبائه
الجسام . عرف بحسن المجالسة ، وطيب المحاضرة ، دقيق النظر ، مشارا اليه
بالعدالة والنزاهة والوقار ، مشهورا برحابة الصدر وحلاوة الدعابة « طال
يوما بين يديه قعود رجل اسمه أحمد بن معاوية ، دعا اليه في حق وقع الفصل
فيه ، فاستأذنه في الذهاب ، فقال : يا سيدى ! ينصرف أحمد ؟ فقال : لا
ينصرف ! فأقام ذلك الرجل وجلا حتى نبه على أن القاضى انما قصد التورية » .
تولى القضاء بعدة مدن ، منها رندة ، ومالقة والمرية ، ولما التحق بفرنطة
استمر قضاؤه بها مع الخطابة ، وذلك حتى أول عصر السلطان أبى الوليد
اسماعيل بن الاحمر . ولد — رحمه الله — عام 649 هـ ، وتوفي في 16 ذى
القعدة عام 629 هـ .

راجع : أبو الحسن النباهى المالقى في « المرقبة العليا » ص 138 — 139
ط. بيروت .

تتعاطى أوجه . تقدم لداته ونفسه على أبناء جنسه ، وأربى يومه على أمسه . فهدر هدره البازل (15) وتقدم فى استنباط الاحكام ومعرفة النوازل (78 . أ) الى وقار تود رضوى حناصته ، وصدر تحسد الارض العريضة ساحته ، ونادرة يدعوها فلا تتوقف ، ويلقى عصاها فتتلقف . وكان له فى الادب مشاركة ، وفى غريضة النظم حصة مباركة .

ومن ذلك فى وصف :

15 - أبى جعفر بن أبى جبل

قد تثنى عليه الخناصر ، وصدر لا يحصر فضائله حاصر . وقاض يريش سهام الاحكام ويبيريا ، ويزيل بنظره الشبه التى تعثر بها ، ويطبق مقاصد الفصل بذهنه الذلق النصل فيفريها . تولى الاقطار فازدانت ، وتقلد الاحكام فلاحت المعدلة وبانت ، وظهرت الحقوق الشرعية لاهلها حيث كانت .

وأما الادب فكان - رحمه الله - سابق حلبة زمانه ومجتلبيها ومتناول رايته ومتوليها ، وان كان لغير فن الادب مصروفا ، وبالعلوم الشرعية معروفنا .

(15) - البازل . يقال . رجل بازل ، أى فيه شدة ، وله خبرة ، ويقولون : « رمى بأشهب بازل » . أى بأمر صعب .

ومن ذلك في وصف :

16 — أبى بكر ابن شيرين • رحمه الله (16)

خاتمة المحسنين ، وقدوة الفصحاء اللسنين . قريع بيت (78 . ب)
زاحم النجوم بكاهله ، وورد من المجد أعذب مناهله . ملأ العيون هديا
وسمتا ، وسلك من الوقار طريقة لا ترى عوجا ولا أمتا (17) . فما

16 هو الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن أحمد الجذامى المعروف بابن شيرين ، ولد حوالى سنة 600 هـ ، بمدينة سبتة ، التى كان قد أنتقل إليها أبوه عقب سقوط اشبيلية فى أيدي الاسبان ابان حروب الاسترداد ، اذ أصله من شلب من كورة باجة باشبيلية . تولى الكتابة السلطانية فى غرناطة أواخر عام 605 هـ ، ثم تقلد منصب القضاء بكثير من الجهات بالاندلس . « وكان — رحمه الله — فريد دهره فى حسن السميت ، وجمال الرواء ، وبراعة الخط ، وطيب المجالسة ، من أهل الفضل والدين والعدالة ، غاية فى حسن العهد ومجاملة العشرة . أشد الناس اقتدارا على نظم الشعر والكسب الرائق » ، ومن مشايخه جده لأمه الاستاذ أبو بكر بن عبيدة الاشبيلي ، والاستاذ أبو اسحاق الغافقى . وروى عن كثيرين من أعلام العصر فمنهم قاضى الجماعة الشيخ الامام أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الرفيق وغيره ، وذلك ابان رحلته الى تونس ، حيث لقى هذا العالم الكبير .

من شعره فى وصف غرناطة :

رعى الله من غرناطة متبؤا يسر كئيبا ، أو يجير طريدا
تبرم منها صاحبى بمد ما رأى مسارحها بالبرد عدن جليدا
هى الثغر صان الله من اهلت وما خير ثغر لا يكون برودا

توفى فى اليوم الثالث من شعبان عام 747 هـ ، ولم يترك خلفا من الذكور .
راجع : النباهى فى « المرقبة العليا » ص 153 .

17 اقتباسا من قوله تعالى « ويستلونك عن الجبال فقل بنفسها ربى نسفا . فيذرها
قاعا صفصفا . لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » سورة طه آية . 105 — 107 .

شئت من فضل ذات ، وبراعة أدوات ، ان خط نزل عن درجته وانحط ،
وان نظم ونثر ، تتبع البلغاء ذلك الاثر . وان تكلم انصت الحفل لسماعه ،
وشرح لدرره النفيسة — صدف اسماعه .

وفد على الاندلس — عند كاينة سبتة (18) . وقد طوحت النوى
برجاله ، وظعن عن ربه لتوالى امحاله ، (وبها) مصرف الدولة فى
بلادها المستولى على طارفها وتلاذها ، مغرس الادب ومقيلها ، وناعش
العثرات ومقيلها ، أبو عبد الله بن الحكيم — قدس الله صdah ، وسقى
منتداه — فاهتز لقدمه اهتزاز الصارم ، وتلقاه تلقى الاكارم ، وانفض
الى الغاية آماله وألقى له قبل السواده ماله ، ونظمه فى سمت الكتاب ،
وأسلاه عن أعمال الاقتاد والاقتاب ، ولم يزل زمامه يتأكد فى هذه الدول ،
وتربى له ولايته منها على الاول . فتصرف فى القضاء بجهاتها ، وقادته

18) هى احدى المدن الساحبية شمال المغرب وضمن ترابه ، ولكنها تتبع حاليا
اسبانيا لها تاريخها على مر العصور الوسطى الاسلامية ، من حيث كونها قاعدة
سياسة هامة ، وقد اتخذها الامويون مركزا حربيا رئيسيا ، فكانوا يصدون منها
تيار الفاطميين ، وفى القرن الثالث عشر الميلادى استولت عليها أسرة « بنى
العزفى » الاندلسية ، ثم بقيت تحت حكم بنى الاحمر أمراء غرناطة فترة من
الوقت ، ثم استولى عليها البرتغال فى القرن الخامس عشر ، وأخيرا ضمها
الاسبان اليهم ، وما تزال تحت حكمهم حتى اليوم . واليها ينتسب العالم
« مرانة السبتي » من أعلم الناس بالحساب والهندسة والفرائض والتأليف ،
ومن تلامذته « ابن مرانة الفرضى » الحاسب ، يقولون انه كان من أهل بلده ،
وكان المعتمد بن عباد يقول « اشتهيت أن يكون عندى من أهل سبتة ثلاثة نقر . ابن
غازى الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة الفرضى » .

أما الكاينة التى يشير اليها المؤلف فقد حدثت عام 605 هـ ، وسنعود الى الحديث
عنها فى مناسبة أخرى قادمة .

راجع : الحموى فى « معجم البلدان » ج 10 ص 182 — 183 ط. القاهرة
1906 م .

(79 . أ) العناية هاك وهاتها ، فجدد عهد حكامها العدول من سلفه وقضاتها .

وله في الادب الذي تحلت بقلائده اللبات والنحور ، وقصرت عن جواهره البحور وسير ذلك — في تضاعيف هذا المجموع — ما يشهد بسعة ذرعه ، وبخبر بكرم عنصره ، وطيب نبعه .

ومن ذلك في وصف :

17 — أبى القاسم الخضر بن أبى العافية (19) رحمه الله

فارس ميدان البيان ، وليس الخبر كالعيان ، حامل لواء الاحسان ، لاهل هذا اللسان ، رفل في حلل البدائع فسحب أذيالها ، وشعشع أكواس العجائب فأدار جريالها ، (20) واقتحم على الفحول أغيالها ، وطمح الى الغاية البعيدة فنالها وتذكرت المخترعات فقال . أنا لها . عكف واجتهد ، وبرز الى مقارعة المشكلات وشهد ، فعلم وحصل ، وبلغ الغاية وتوصل .

(19) هو الشيخ القاضى الحضرى بن أحمد بن أبى العافية الانصارى ، وكنيته أبو القاسم ، ويعرف بابن أبى العافية ، من أهل غرناطة . اشتهر من بين أعلام القضاء ، معروفا بفتاواه وحل المضلات ، واستخراج النصوص الغريبة ، ونسخه لها بيده ، وتقييده الكثير من المسائل كما كان مضطلعا بنوازل الاحكام ، وهو — الى ذلك — من أئمة النحو في الاندلس . وكان مقصد القضاة ، ومحل استشارتهم في المشكلات ، بارعا في الادب ، ظريفا في الخط ، ممارسا للشعر . توفى — رحمه الله — بمدينة برجة ، ولكن دفن في غرناطة ، عند باب البيرة ، الذى ما يزال قائما حتى اليوم من أبواب العاصمة ، قرب ميدان النصر الآن ، وذلك عصر يوم الاربعاء آخر ربيع الاول من عام 745 هـ ، في عهد السلطان أبى الحجاج يوسف الاول ابن الاحمر (773 — 755 هـ = 1333 — 1354 م) كما كان معاصرا للمؤلف (ابن الخطيب) .

راجع النباهى في « المرقبة العليا » ص 149 — 152 .

(20) الجريسة في الاصل : حوصلة الطائر .

وتولى القضاء فاضطلع بأحكام الشرع وبرع في معرفة الاصل والفرع ،
وتميز في المسائل بطول الباع (79 : ب) وسعة الذراع فأصبح صدر
مصره ، وغرة في صفحة دهره .

ومن ذلك في وصف :

18 - أبى اسحاق بن جابر الوادى آشى (21)

فحل هادر ، وبليغ - على الكلام - قادر . اهتز له العصر على
رجاحة أطواده ، وظهر له الفضل على كثرة حساده . ولما جلى في منصة
الابداع بنات فكره ، وحاسن عقائل الحى الحلال بفكره ، طولب باثبات
تلك البنوة ، وقيل . هذا الجمل وهذه الكوة ، فخاصم حتى أظهر الحق ،
وتمم فاستحق ، وذيل ووطى ، وتجاوز الغاية البعيدة وتخطى .

ولم تنزل بدائعه في اشتهاه ، وروضات آدابه أزهار ، وتصرف في
الكتابة فكان صدر ناديمها ، وقلادة هاديهها . وولى خطة القضاء في هذه
المدة ، وقد ناهز اكتماله وبلغ أشده ، وحسنت سيرته ، وأثنت عليه بكل
عمل جيرته ، وله نفس الى العلم مرتاحة ، وخواطر تنتجع منه كل ساحة ،
هام فيه بكل مستحيل وجائز ، وكلف حتى بعلوم العجائز وشعره جزل
الاسلوب ، وعذب (80 . أ) في الافواه والقلوب .

(21) النسبة الى « وادى آش » أو « وادياش » كما ترسمها بعض المخطوطات ،
احدى المدن الاندلسية ، تقع شمال شرق غرناطة ، على نهر فردس ، وتبعد
عن العاصمة بنحو خمسة وخمسين كيلومترا ، وللمدينة تاريخها عبر العصر
الاسلامى ، وما تزال قائمة حتى اليوم .

راجع: الحميرى في «الروض المعطار» ص 192 - 193 نشر ليفى بروفنسال،
ط. لندن 1938 .

ومن ذلك في وصف :

19 - أبي عبد الله بن غالب الطريفي

طويل القادمة والخافية (22) محكم لبناء البيت وتأسيس القافية .
صاحب طبع معين ، وآت من القصائد بحور عين . عكف على النظم في
جيله ، عكوف الراهب على انجيله . ولم يزل يفوق الى كل غرض سهامه ،
ويستسقى صييه وجهامه ، ويهز ماضيه وكهامه ، حتى اشتهرت أبياته ،
وحفظت بديهيته وروياته . وتصرف في القضاء فاستقام أوده ، وانطلقت
في الحكم يده .

وكانت له وفادات على ملوك هذه الدول ، في العصور الاول ، نظم
فيها ومدح ، وقدر من قريحته ما قدح .

وتوفي ببلده عن سن عالية ، وزمانة متوالية . ولما شرع المؤلف
- رضى الله عنه - في انشاء هذا الكتاب بعث اليه بعض أهل بلده - ممن
عنى بحفظ الطروس ، واحيائها بعد الدروس - (80 . ب) بمهراق (23)
أكل الدهر منها ما تجسم ، وانتهبها الدهر ما شاء وتقسم ، فأثبت له ما
ينظر في محله ، ان شاء الله .

ومن ذلك في وصف :

20 - أبي القاسم المعروف بابن الجمالة

صدر في القضاء ، وينبوع للخلال المرتضاة ، وطائع لسيوف الكلم
المنتضاة .

(22) القوادم والخوافي . أوصاف تتعلق بريش الطائر ، فالقوادم هي الريشات في مقدم
الجناح ، وهي عادة تكون كبار الريش ، والخوافي صفاره ، ومكانها تحس
القوادم ، التعبير هنا مستعار للكناية .

(23) المهراق : جمع مهرق ، وهو الصحيفة .

نشأ ببلده رندة (24) — حرسها الله — صدر سكانها ، وفضيلة مكانها وزمانها ، وعين أعيانها ، وحامل لواء بيانها . ولم يزل يسلك من الفضل على السنن المأثور ، ويركض جياذ المنثور ، فأغرب الغرب بآدابه ، وتعلق الاحسان بأهدابه .

وتولى الاحكام الشرعية ، فأجال قداحها ، وقرر مكروها ومباحها ، وتناول المسائل فأبان صباحها ، حتى خلصت فيه السرائر ، وعقدت على حبه الضمائر ، وطابت به الخواطر ، وتضوع من ثنائيه المسك العاطر . وقعد لهذا العهد الاكبر ، وحووم عليه الاجل المنتظر ، فتعطلت لضعفه تلك النسوق (81 .) ، وعدم — لانعدام بيانه — الدر المنسوق .

(24) تقع مدينة رندة غرب مالقة ، وقد كانت من أهم القواعد الاندلسية ، كما كانت من أهم مدن غرناطة ، وتعتبر الحصن الذي يحمي مالقة من ناحية الغرب ، ولذلك لما سقطت رندة في يد الاسبان في أبريل 1485 م (جمادى الاولى 890 هـ) اضحى الطريق سهلا لاستيلاء القشتاليين على مالقة ، فقد سقطت هذه الاخيرة بعد قليل في ايديهم (أغسطس 1487 م) = (شعبان 892 هـ) . وتشرف المدينة على منطقة عالية من الربى ، ويشقها من وسطها وادى ليين ، وقد وصف ابن بطوطة رندة حينما زار الاندلس عام 1350 م بقوله :

« وهى من أمنع معاقل المسلمين ، واجملها وصفا » ويبلغ عدد سكانها حاليا 50 ألف نسمة ، فهى مدينة متوسطة الحجم ، يغلب عليها طابع القدم والبساطة ، وتبدو فى مسحة أندلسية واضحة ، من أهم الآثار العربية بها حتى اليوم أطلال القصبة الشهيرة ، والقنطرة عند مدخل المدينة الغربى ، وهى ذات عقد واحد بالغ الارتفاع ، ثم الحمامات العربية وهى أطلال دارسة ، تقع بمقربة من الكنيسة العظمى ، ومن الآثار كذلك « المنارة » فى نهاية المدينة ، ويبلغ طولها حوالى 12 مترا ، وقصر الامير ابى مالك ، ويقع فى طرف المدينة الجنوبى ، وباب المقابر فى حى « فرانسيسكو » ، والى هذه المدينة ينسب الفقيه ابن عباد الرندى .

راجع : ما كتبه « ليفى بروفنسال » عن هذه المدينة فى Enc. 1514-111.P.1254
ثم مجلة الاندلس ، العدد 472 (1944) .

ومن ذلك في وصف :

21 - أبى الحجاج المتشافري

حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتوبة الزمان الجم الذنوب ، ما
ثبتت من بشر يتألق ، وأدب تتعطر به النسمات وتتخلق ، ونفس كريمة
الشمائل والضرائب ، وقريحة يقذف بحرها بماء الغرائب . الى خشية
لله تعالى تحول بين القلوب وقرارها ومراقبة تثنى النفوس (عن)
اغترارها . ولسان يبوح بأشواقه ، وجفن يسخو بدرر آماقه ، وحرص
على لقاء كل ذى علم وآدب ، وبحث عمن يمت - الى أهل الديانة والعبادة
- بسبب .

سبق بقطره الحلية ، ففرع من الادب الهضبة ، ورفع الراية ، وبلغ
الغاية . فطارت قصائده كل المطار ، وتغنى بها راكب الفلك وحادي
القطار . وتقلد خطة القضاء ببلده ، وانتهت اليه رئاسة الاحكام بين
أهله وولده ، فوضحت المذاهب بفضل مذهبه وحسن مقصده . وله
شيمة في الوفاء تعلم منها الآس ، ومؤانسة عذبه لا تستطيعها الاكواس .
ومن ذلك في وصف :

22 - أبى محمد عبد الحق بن عطية (25)

قريع بيت أصيل ، وصدر معرفة وتحصيل . نشأ على العفاف ،

(25) هو الشيخ القاضي عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي .
نشأ بفغرناطة ، وتولى القضاء بالمدن الاندلسية ، واشتهر بيته بالعلم والفضل
والكرم ، وعرف هو بالتبريز في الاحكام والحديث والتفسير ، كما كان بارعا في
الادب والشعر ، لفويا ، مستخرجا للنصوص ، مقيدا لها . له تفسيره القرآني
المشهور « الوجيز في التفسير » ، يقولون : انه من احسن التأليف وأبداع
التصانيف في هذا المضمار ، وتقوم بطبعه الآن وزارة الاوقاف المغربية ، ونشرت
منه بعض أجزاءه . كانت ولادته عام 481 هـ ، وتوفي رحمه الله يوم
25 رمضان عام 541 هـ .

راجع : « المرقبة العليا » للنباهي ، ص 109 .

وتبلغ بالكفاف ، وعمل على شاكلة من له من كرام الاسلاف . الى نفس
ملايسها الحيا والوقار ، وأدب ينم عنه أخلاقه كما تنم تحت الزجاجة
العقار ، وخط تهيم بمرقومه الابصار ، وبلاغة هذبها الاختصار ، ومحاضرة
تتجلى بها الليالى القصار .

تقدم بقطره الى الخطابة والامامة ، أظهر من ماء الغمامة وأطيب
من بنت الكمامة ، ففرع — على حداثة السن — أعوادها ، وبلغ آمادها ،
وأصبح من الصدور فؤادها ، ومن العيون سوادها ولا ينكر العذب في
ينبوعه ، والنور في مشرق طلوعه . وقد أثبت من أدبه ، ما يعرب عن
مذهبـه .

ومن ذلك في وصف :

23 — أبى القاسم بن عيسى

قريع فضل ومجادة ، وضارب في هدف الآداب بسهم اجادة .

كان أبوه — رحمه الله — خطيب مالقة (26) صدر فضلائها ،
وواسطة (82 .) علائها . ونشأ هذا الفاضل — رحمه الله — سالكا
في العفاف على مسلكه ، ومتنقلا في درجات فلكه .

(26) هى مدينة ساحلية على البحر الابيض المتوسط ، جنوب شرق الاندلس ، يرجع
تأسيسها الى الفنيقيين عام 1200 ق.م . ، كانت تشتهر قديما بالاسماك الملحة ،
وتتوفر المدينة حاليا على أجود أنواع الفواكه ، ولها شهرة في صناعة الفخار .
ولقد كانت عاصمة الحموديين الادارسة زمن ملوك الطوائف والى هذا يشير
لسان الدين ابن الخطيب في كتابه « معيار الاختيار ، في ذكر المعيار والديار »
فيقول : « كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب
عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة » ، كما كان بنو
الاحمر يعتبرونها العاصمة الثانية بعد غرناطة .
راجع : المقرئ في « نفع الطيب » ج 1 ص 186 ، تحقيق الشيخ محى الدين
عبد الحميد ط. القاهرة .

تولى القضاء لأول أمره ، على حداثة سنة وجدة عمره . ثم دعى
للكتابة فتنقل الى الحضرة (14) وتحول ، وعزم على المقام بها وعول ،
فأجال براعته ، وشهر براعته . ولما غصه الاغتراب ، وباين وطنه كما
باين السيف القراب ، شاقه الالهل والاتراب ، والماء والتراب ، وحن
الى دوحه الذى به تأود ، وكبرت عليه الخدمة وصعب على الانسان ما لم
يعود . فرغب فى الانصراف الى بلده ، واحتمال أهله وولده . وهو اليوم
قاضى جهاتها الغربية ، ومنفذ أحكامها الشرعية .

وله أدب وخط ، وبحر من المعرفة ليس له شط . وقد أثبت من
شعره ما يشيد بذكره .

ومن ذلك فى وصف :

24 - أبى زيد خالد بن خالد

فائز من الابداع بكل مطلوب ، ومشتمل اسماع وقلوب ، (82 . ب)
وفى البداوة حسن غير مجلوب (28) . قدح قريحته الوقادة ، وراض
صعب الكلام فأعطاه المقادة . فتألق بذلك الافق تألق البرق ، وطلع
بتلك الجهة الشرقية ولا ينكر النور على الشرق . فشرف فى قومه ،
وأصبح فيه امسه منافسا ليومه . الى بلاغة تتحلى بها صفحات المهارق،
وعفاف حتى عن الخيال الطارق .

ورحل الى هذا العهد القريب ، وقد أصبح بحسن ضرايبه عديم
الضرايب ، فاقتحم فرصة المجاز (29) ، الى مثابة الحجاز ، فقضى وطره

(27) يعنى بالحضرة : غرناطة العاصمة النصرية .

(28) عجز بيت يروى هكذا :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

(29) يعنى أنه عبر مضيق جبل طارق .

من تلك المشاهد وتبرك بقاء أهلها من عالم وزاهد . وقفل وقد دون
رحلة سفره ، وزها بها زهو الجفن بزهره ، والخذ بخفره .
واجتاز بالبلاد الموحدية ، فدعته الى خدمة بابها ، وقلدته رئاسة
كتابها . فأينع روضه واثمر ، وحل بهالته فأضاء وأبدر ، فلم يكن
الا كلا وأكثر . حتى جذبه الشوق برسنه ، وطار به الوجد الى وطنه .
فأسرع اللحاق ، وأثار على النور المحاق ، وعلى ذلك فقد ولى للحين
(83 .) ببلدته قضاءها ، وتقلد انفاذ الاحكام وامضاءها ، رحمه
الله .

ومن ذلك في وصف :

25 - أبى عبد الله بن عبدة

مجموع أدوات ، وفارس قلم ودواة . وشيخ تقع العين منه على
صورة طريفة وهيئة ظريفة ، وقريع بيت نبيه ، وأصالة ليس لها من
شبيهه . وله خط حسن وبلاغة ولسن . تصرف في القضاء فما ذوى
لسيرته نور ، ولا نسب له حليف ولا جور .

ومن ذلك في وصف :

26 - أبى زكريا القباعى

شاعر ، اذا نظم أجاد ، وان استسقى طبعه جاد . الى ديانة
سابغة الاذيال ، واخلاق معتقة الجريال (30) ، ومعان الطف من طيف
الخيال . ولم أقف من كلامه الا على قصيدة ، مبدية في الاحسان معيدة ،
يخاطب بها الوزير أبا بكر بن الحكيم (31) .

(30) الجرية : فى الاصل حوصلة الطائر ، وربما عنى هنا وعاء المسك فى جسم
الفـزال .

(31) سيفرد له ترجمة خاصة بعد قليل .

ومن ذلك في وصف :

27 - أبى جعفر السياسى

حسن الاغراض ، يقى الجواهر من مخالطة الاعراض ، وأدب غص
كزهر الرياض ، ومعان كمن فيها الابداع (83 ب) كمون السحر في
الجفون المراض وتقدم للقضاء ببعض تلك الجهات . فأقام رسمه ،
وانفذ حكمه ، بنزاهة مأثورة ، وسيرة مشكورة .

ومن ذلك في وصف :

28 - أبى جعفر بن عبد الحق

مجموع فضائل ، وكامل لم يدع مقالا لقائل . ان ذكرت المعارف
فهى من حلابه ، أو تليت سورة السور كان ذكره أم كتابه .

قعد ببلده يدرس العلم ويجيل قداحه ، ويدير أكواس البيان
ويشعشع راحة فأصبح به غرة ، وبلبل عصره ودره . الى وقار تحسد
العضاب سكونه ، وتهوى أن تكونه . واقناع بحسب كل سائل ، ومقيم
من المشكلات كل مائل . وأدب لا تشح رهامه (32) ولا تتعدى الغرض
سهامه ، صدر معظمه فى دول درسه ، واجتناه ثمرة العلم من غرسه ،
على جهة التعليم والتدريب ، لمنتحلى البيان والغريب .

(32) الرهام : ج رهمة بكسر فسكون ، المطر الخفيف الدائم .

ومن ذلك في وصف :

29 — الحكيم المفرد أبي عثمان بن لبون *

مجتهد مشمر ، منقبض عن الناس متغمر . قصر — على نظر العلم —
أوقاته ، وتبلغ بالقليل بغاته . وعكف على التقييد والتدوين (84 . أ) ،
واكتسب من الامهات كل دخر ثمين ، وهلم حرا ، فقد اشتهر بفوده
صبح المشيب ، ونضا برده الزمن القشيب . وما فتر عن مواصلة
اجتهاد ، وايتار أرقه وسهاده ، ومال الى صناعة الطب فدون فيها ،
وشارك منتحليها . وجعلها مادة حاله ، ومحط رحاله .

وله نظم حسن ، وعارضة ولسن ، نظم به العلوم ودون ، وتقلد
في شتى المآخذ وتلون . وبآخره فهو روضة انيقة ، وخميلة وحديقة ،
وضارب بسهم في كل طريقة . وقد أثبت من شعره يسيرا ، جعلته
للمحاسن اكسيرا (33) .

* هو الشيخ أبو عثمان سعيد بن أحمد بن ليون ، أحد شيوخ المؤلف ، كان ميالا
الى اختصار الكتب ، وصفه المقرئ بقوله : « . . . وتواليفه تزيد على المائة ،
وقد وقفت منها بالمغرب على أكثر من عشرين » ، وقد أورد له مجموعة كبيرة
من مقطعاته الشعرية .

انظر : المقرئ في « النفح » د 8 ص 58 ، ونيل الابتهاج ، د 5 : 1 (ط. فاس) ،
والكتيبة الكامنة ، ص 86 ، 87 (بيروت 1963) .

(33) الاكسير : في الاصل مادة تلقى على الفضة فتتحول الى ذهب خالص ، وهو من
الخرافات ، ولكن في العلم الحديث يعنى الاكسير « مادة الحياة وسرها » لاي
شيء عامة .

ومن ذلك في وصف :

30 - المكتب أبي عبد الله ابن قاسم المالقي

مجدد مرتل ، وعابر متبتل ، على ما يزلفه من صالح الاعمال
ويدنيه . عكف على تعليم كتاب الله العزيز ، وشمر على قدم التبريز ،
وارتضاه الوزير ابن الحكيم * أماما لصلاته ، واعتمد بجوايزه الجزيلة
وصلاته . ولم يزل (84 : ب) يرفعه يضبعه (34) حتى عصف الدهر
بربعه . فضاع ضياع مصباح الصباح ، ولعبت به الايام كما لعبت
بالهشيم أيدي الرياح . وتقلبت به أيدي الزمان ، واحوجت الثمانون
سمعه الى ترجمان (35) .

وله أدب محكم القوى ، منيع الهضبات والصوى (36) .

(34) القصد من التعبير . الاشادة بالذكر عاليا .

(35) اقتباسا من قول الشاعر :

ان الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى الى ترجمان

والتعبير كناية عن بلوغ المترجم له مرحلة متأخرة من العمر .

(36) الصوى : ما يوضع من احجار كدليل بالطريق .

* سنفى لهذا الوزير ترجمة ضافية ، وذلك عند حديث المؤلف عن « الخطيب اى
عبد الله بن رشيد » .

ومن ذلك في وصف :

31 — ابن عبد الله بن الصايغ

من أهل المرية (37)

بحر معرفة لا يغيض ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويغيض . نشأ
من بلاده مشمرا عن ساعد اجتهاده ، وسائر في فن العلم ووهاده ،

(37) المرية . مدينة كبيرة جنوب شرق الاندلس تعرف في الاسبانية باسم Almaria وهي من أجمل الثغور والمدن الاندلسية ، وعاصمة الولاية المسماة باسمها ، يبلغ تعداد سكانها حوالى 83.000 نسمة ، وأهم صادراتها الحديد والرصاص والفاكهة ، وكانت في العهد الاسلامى من أهم ثغور الاندلس الجنوبية ، ولها أصالتها التجارية ، فقد ذكر ابن الخطيب انه كانت تقطنها على أيامه جالية اجنبية من النصرى الاسبان وغيرهم ، وكانت مهنة معظمهم التجارة استيرادا وتصدير ، وترجع شهرتها في هذا الى صناعة الحل الحريرية الموشاة ، وقد أعانها موقعها البحرى على تصدير هذه الصناعة الى الخارج بواسطة السفن ، والى الداخل بواسطة القوافل البرية وقد ذكر « المقرئ » في روايته عن كتاب « مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية » لابن خاتمة الانصارى احد أبنائها — انه كانت بالمرية على عهده 800 نول لطرز الحرير ، و 100 للحل النفسية والديباج وأمثال هذا العدد مكرر لانواع أخرى من هذه الصناعة ، كالستر المكلفة وغيرها . كما ذكر عن نفس المصدر أنه كانت تصنع بالمرية صنوف متنوعة من آلات الحديد والنحاس وأشكال من الزجاج ، وكلها مما لا يكاد يوصف ، ثم أضاف « ابن خاتمة » قائلا . انه لم يكن في بلاد الاندلس أكثر مالا من أهل المرية ، ولا أعظم متاجر ولا أوفر ذخائر ، وانه كانت بها دار للصناعة .

ولقد بنى المدينة أصلا الخليفة الاموى عبد الرحمن الثالث « الناصر » عام 344 هـ 955 م ، وسقطت في يد الاسبان ابان حروب الاسترداد عام 895 هـ (1490 م) . راجع . الروض المعمار للحميرى ، ص 183 — 184 ، وخطرة الطيف ، ضمن « مشاهدات ابن الخطيب في بلاد الاندلس والمغرب » ص 143 ، بتحقيق د. العبادى ط. جامعة الاسكندرية 1958 ، ونفح الطيب للمقرئ ج 1 ص 154 ، ثم ما ذكره المستشرق « زييولد » في دائرة المعارف الاسلامية عن وضعية هذه المدينة في العصر العربى ج 1 ص 319 .

ومواصل لأرقة فيه وسهاده ، حتى أينع روضه ، وفهق حوضه (38) ،
وأضاءت سرجه ، وتعطر أرجه .

ولما استكمل من المعارف ما استكمل ، وبلغ ما أمل ، أخذ في اراحة
ذاته ، وشام فوارق لذاته .

ثم سار في البطالة سير الجموح ، وواصل الغبوق الصبوح (39) ،
حتى قضى وطره ، وسئم بطره . وركب الفلك وخاض اللجج الحلك .
واستقر (85 . أ) بمصر على النعمة العريضة بعد قضاء الفريضة ،
وهو اليوم (40) بمدرستها الصالحة (41) — عمرها الله بذكره — نبيه
المكانة ، معدودا في أهل العلم والديانة . وصدرت عنه الى هذه البلاد
قصيدة نبوية ، تغنى بها الحادى المطرب ، وكلف بها المصعد والمصوب ،
تدل على انفساح طباعه ، وامتداد باعه .

(38) فهق الحوض أو الاناء : امتلأ حتى صار يتصبب ، والكناية هنا عن استكمال
المترجم له لاسباب العلم والمعرفة .

(39) الغبوق . العشى . والصبوح ، الغداة ، والقصد هنا . مواصلة ليله بنهاره فيما
هو بصده .

(40) عصر المؤلف (ابن الخطيب) .

(41) تنسب هذه المدرسة الى منشئها السلطان الايوبى من دولة الممالك البحرية
بمصر البالغ عددهم 24 سلطانا (1250 — 1290 م) ، وهم قسيم لمن بعدهم
من الممالك البرجية ، وهؤلاء يبلغون 23 سلطانا (1382 — 1517 م) والجميع
يرجعون أصلا الى اجناس شتى فمنهم التركى والشركسى والمغولى والايطالى
والالمانى واليونانى . وقد طارت شهرة الممالك لما حققوه لمصر من قوة وثروة
وسلطان ، كما يرتبط تاريخهم بصد الخطر المغولى ، وانهم اخرجوا الصليبيين
من الشام ، حتى غدوا القوة العظمى دفاعا عن العالم الاسلامى يومئذ ،
ويعتبرون فى النهاية آخر الدول المستقلة التى حكمت مصر .
راجع . تاريخ العالم العربى وحضارته ، للدكتور زيادة وآخرين . ص 215 —
217 ط (القاهرة الخامسة 1965 م) .

ومن ذلك في وصف :

32 - أبى عبد الله بن الحاج البضيعة

مدد المقاصد ، آخذ للمعانى بالمراسد ، وكاتب شروط لا يساجل
في مضمارها صحة فصول ، وتوقيع فروع على أصول . وكلما طلب
بالنظم القريحة ، وأعمل فكرته الصريحة ، أجابت ولبت ، وتسنمت رياح
بيانه وهبت . . وحفظت العامة من كلامه لقربه من افهامها ، وانتصاب
غرضه اسهامها .

ومن ذلك في وصف :

33 - أبى عبد الله بن عصام

منتقم الى حسب ومجد ، وفارع من الاصاله كل نجد ، وان نوزع
فيها بخصام . وخلفه الذى رأس من بعده ، واستوفى بمرسية (85 : ب)
حظ سعه حتى أتاه الاجل لوعده ، وراعه الدهر ببرقه ورعه .
وكان هذا الرجل عدلا من عدول بلده ، وذاهبا من الفضل الى
أقصى أمدده لولا تهور وافرط ، وطيش تخبط فى شركه وتورط .
وله أدب ضعيف المبني ، خال من المعنى ، كان يسهل عليه ، وينثال
بين يديه .

ومن ذلك في وصف :

34 - أبى جعفر بن أبى غالب

ماطر جاد بالوابل السجم ، وشاعر افتتح بيتا فى النجم . وبليغ
قاد الكلام برسنه وايقظ طرف البلاغة من وسنه ، وطبق فصل الخطاب
بلسنه .

كان وابن عمه — رحمهما الله — فرسى سباق ، ومديرى كأس
اصطباح للادب واغتياب . غير أنه كان أشد انقباضا ، وأكثر أزورارا (42)
عن الخدمة واعراضا . وابن عمه اسمع طباعا ، وافسح باعا ، وأوفر
صاعا ، فقد انتجع واسترشد ، وأصلح بتعريضه واقتصد ، حسبما
تضمنه كتابى المسمى بـ « طرفة العصر ، فى اخبار دولة بنى نصر » .

وقد أثبت من شعر أبى جعفر (86 . أ) هذا ما يشهد باجادته ،
وبنظمه فى فرسان الكلام وقادته .

ومن ذلك فى وصف :

35 — أبى الحسن الرقاص

سابق لا يشق غباره ، ودوح فنون لا يغب جناه (42) ولا تذبل
أزهاره . تتبع الغوامض بثاقب فهمه ، وأصمى كل مشكلة بسهمه (43)
فشأى حلبته وتقدمها ، وزاول المعارف وخدمها ، فترشف منها كل ريقه ،
ولم يقتصر على طريقة ، وتفيأ كل حديقة ، من مجاز وحقيقة . فكما
استمطرته صاب ، أو رميت به غرضا أصاب . حتى تزوع نسيمه الهمم ،
لطبيعة الشمائل والشيم .

وقد أثبت من أدبه — الذى خاطبنى به — كل عطر النفحة ، مشرق
الصفحة .

(42) الأزورار . مصدر أزور ، وهو العدول والانحراف .

(42) غبت الفاكهة تغب . بمعنى انها تأتى ثمارها اياما بعد ايام ، فالتصد هنا ان
المرجم له لا ينقطع له انتاج .

(43) اصماه السهم . أصاب منه مقتلا ، والمقصود هنا اصابة التوفيق فى شتى
المشاكل المعروضة عليه ، وذلك بما يتوفر عليه الشيخ من فقه وتصرف .

ومن ذلك في وصف :

36 - أبي عبد الله النجار

متقن مشارك ، واخذ في الادب غير تارك . برع في الوثيقة وأحكامها
وتنزيل فصولها على مقتضيات أحكامها . الى نفس جبلت على حسن
الاخلاق ، وشمائل أعذب من الماء الزلال (86 . ب) في المذاق ، وايناس
يسرى في الارواح سرى الراح ، ومذاكرة اشهى من العذب القراح .

وهو - الآن - صدر في عدول بلده ، وسابق تتقف الحلبة منهم دون
أمره .

ومن ذلك في وصف :

37 - أبي عبد الله الزيان الوقشي

صنع اليدين ، فايز من سهام الضراب بالفريضة والدين . اذا
زين الطروس (44) وقطر أصباغها ، وأحكم في قوالب السحر افراغها ،
حسر قدح تلوينها ، وحقرت الرياض بساتينها . الى خط يقف عنده الطرف ،
وأدب كالروض راق منه المجتلى وتأرجح العرف (45) ونفس أرق من
نسيم الفجر ، واخلاق أعذب من الوصل في عقب الهجر .

وقد أثبت من كلامه ما تعذب موارد ، وتروق شوارده .

(44) الطروس : ج طرس بكسر فسكون ، وهو الصحيفة .

(45) العرف . الرائحة عموماً ، والاستعمال الأكثر للرائحة الطيبة ، فتأرجح العرف
هنا ، انتشرت رائحته الطيبة .

ومن ذلك في وصف :

38 — أبي القاسم بن رضوان

أديب أحسن ما شاء ، وفتح قليب قلبه فملاً الدلو بل الرشاء ،
وعانى في حداشته الشعر والانشاء . وله ببلده بيت معمور ، بفضل
وأمانة ، ومجد وديانة ونشأ هذا الفاضل على أتم العفاف والصون ، فما
مال الى فساد بعد الكون . وله خط بارع ، وفهم الى الغوامض مسارع ،
فقد أثبت من كلامه ، ونفثات أقلامه ، كل محكم العقود ، زارا بابنة
العنقود .

ومن ذلك في وصف :

39 — أبي جعفر بن صاحب الصلات

محسن لا ينازع احسانه ، وبليغ لا يساجل لسانه ، وذكى يتوقد
فهمه ، ومجيد يصيب كل غرض بسهمه . فما شئت من ادراك ماضية
نصوله ، وذكاء علت فروعه وطابت أصوله ، (87 : أ) وطرف كالروض
لما اعتدلت فصوله ، وأدب شدت معاقده ، فلا يطمع فيه ناقد .

جالسته في بعض التوجيهات الى مالقة — حرسها الله — فرضت
روضا تعطر وتأرج ، ومر به نسيم دارين (46) يتأرج . فلما ظفرت
بجناه الطيب ، وقعدت تحت عمامة الصيب ، تركت خبره لعيانه ، وخطبت
نبذة من بيانه ، فأنشدني ما يذكر .

(46) دارين . موضع بالبحرين في الخليج العربى ، يجلب اليه السمك من الهند ،
وينسب اليها .

ومن ذلك في وصف :

40 - أبى بكر بن مقاتل

تابعة مالقية ، وخلف ممن ترك الادباء وبقية ، ومغربى الوطن
اخلاقه مشرقية . اشتهر بالاجادة بين أصحابه ، وتآلق البارق خلال
سحابه حتى اشتهر احسانه ، ومضى عند الشعر لسانه . ثم أزمع
الرحيل الى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق ، وسهم القدر
لا يخطى ، ومن استحثه الاجل لا يبطى . ولما توسطت السفينة اللجج ،
وقارعت الشج ، هال عليها البحر فسقاها كأس الحمام ، وأولدها قبل
التمام . وكان رحمه الله فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على نوره
سوادها ، من الطلبة والادباء ، وابناء السراة الحسنة . أصبح كل منهم
مطيعا ، لداعى الردى سميعا ، وأحبوا فرادى وماتوا جميعا . غسلاوا
القلوب حزنا ، وأرسلوا العبرات مزنا ، وكان البحر لما طمس سبل
خلاصها وسدها ، وأهال هضبة سفينتهم وهدها ، غار لدرهم النفيسة
فاستردها .

والفقيه أبو بكر - مع اكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره - لم أظفر
من أدبه الا باليسير التافه ، بعد وداعه وانصرافه .

ومن ذلك في وصف :

41 - المؤنن أبى الحجاج بن مرزوق

(88 هـ) خير استبق الى داعى الفلاح استباقا ، وانتهى الى
القوم الذين هم في الآخرة أطول أعناقا ، وان كانوا في الدنيا أضيق
أرزاقا . مردد أذكار ، ومسبح أسحار ، وعامر مؤذنة ومنار . كان

ببلده رندة — حرسها الله — مؤذنا بجامعة ، ومؤقتا بام صوامعها (47) ومعتبرا فيمن كان بها من فضلاء السدنة (48) وممن يشمله قوله « فكانما قرب بدنه » ، وكان له لسان مخيف ، وشعر سخي ، توشح بحليته ، وجعله وسيلة كربته .

ومن ذلك في وصف :

42 — أبي الحسن ابن الجياب (49)

صدر الصدور الجلة ، وعلم أعلام هذه الملة ، وشيخ الكتابة وبانيها ، وهاصر أفنان البدايع وجانيها . اعتمدته الرياسة فنأى بها على ذراعه ، واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على شبة يراعه . فتقيا للعناية ظلا ظليلا ، وتعاقبت الدول فم ترب به بديلا .

(47) يرمى المؤلف الى أن المترجم له كان مؤذنا بالمسجد الكبير الجامع بالمدينة .
(48) أصل السدانة . خدمة الكعبة أو بيوت العبادة ، والمراد هنا أنه كان أحد حجاب وخدمة المسجد .

(49) هو رئيس الديوان ، العلامة الاديب ، على بن محمد بن سليمان بن على بن سليمان ابن الحسن الغرناطي الانصارى ، يكنى أبا الحسن ، ويعرف بابن الجياب . ولد بقرنطة في جمادى الاولى 573 هـ (نوفمبر — ديسمبر 1174 م) . درس العلم والادب على فطاحل العلماء وكبار الادباء ممن حفل بهم عصره ، فمن مشايخه أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفى ، ومن تلامذته المبرزين المشهورين المؤلف نفسه (ابن الخطيب) . ويعتبر هذا الرئيس في طليعة الكتاب والشعراء الذين حفل بهم بلاط بنى الأحمر ، وخاصة السلطان أبا الحجاج يوسف الاول (733 — 755 هـ) . ولم يقتصر شعره على المديح شأن بقية شعراء الملوك ، وإنما تجاوزه الى فنون الشعر الاخرى ، فأجاد التصرف في مختلف المناسبات ، كما أسهم بحظ وافر في الاحاجى الشعرية ، حتى قال عنه تلميذه ابن الخطيب . « ولم أر أحدا أحكم الالغاز مثل ما أحكمه ابن الجياب » . وقد نوه بالمترجم له في الميدان الشعرى — بعد ابن الخطيب — ابن حجر العسقلانى في كتابه . « السدر الكامنة » ، في شعراء المائة الثامنة « مستشهدا ببعض أشعاره ،

من نذب (50) — على علوه — متواضع ، وجد لثدى المعارف راضع ،
لا تمر مذاكرة في فن الاوله فيه التبريز ، ولا تعرض جواهر الكلام على
محكات (88 . ب) الافهام الا وكلامه الابريز (51) . حتى أصبح الدهر
راوى احسانه ، وناطقا بلسانه . وغرب ذكره وشرق ، وتجاوز البحر
الاخضر والخليج الازرق (52) . الى نفس هذبت الآداب شمائلها وجادت

التي اورد المقرئ جزءا منها غير يسير في « نفح الطيب » . هذا ، ولابن الجياب
جولاته في صناعة الكتابة ، ويكفى شاهدا له تلك الرسائل التي دمجها قلمه
— على لسان سلطانه ابي الحجاج — الى من عاصره من ملوك المسلمين
والنصارى ، وما كان يسطره من المراسيم الملكية ، تلك التي جمع منها ابن
الخطيب قدرا في رسالته المسماة « تافه من جم ، ونقطة من يم » ، كما وصفه
ابن خدون بأنه « شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية » ، ولكن
يبدو ان ابن الجياب كان أقصر باعا في النثر عنه في النظم ، مما جعل المقرئ
يسجل عليه مثل هذا بقوله « ويظهر لى ان نظمه أعلى طبقة من نثره ، وعلى
كل حال فهو لا يتكلف نظما ولا نثرا » .

تولى ابن الجياب منصب الكتابة للسلطان ابي الوليد اسماعيل ابن الاحمر ، ثم
لابنه من بعده السلطان ابي عبد الله محمد الرابع ، ثم لاختيه السلطان ابي الحجاج
يوسف الاول ، وخلال هذه الفترة ظل يتقلب في ديوان الانشاء حتى ظفر برياسته ،
وكان من زملائه وأعاونيه في الديوان الوزير عبد الله بن سعيد والد ابن الخطيب ،
الذى استشهد في وقعة طريف الكبرى (741 هـ) ، فخلفه في خدمة القصر ونده
لسان الدين ، فقلده ابن الجياب منصب أمانة السر .

توفى ابن الجياب في محنة الوباء الكبير الذى اجتاح الاندلس ضمن ما اجتاح من
دول حوض البحر المتوسط ، وكانت وفاته في 23 شوال 749 هـ (14 يناير
1349 م) ، في العاصمة غرناطة حيث دفن بها رحمه الله .

راجع . المقرئ في « نفح الطيب » ج 7 ص 352 — 384 تحقيق الشيخ محي
الدين عبد الحميد — القاهرة 1949 م . وكذا « يوسف الاول ابن الاحمر سلطان
غرناطة » للمحقق ، ص 54 — 55 نشر لجنة البيان العربى بالقاهرة 1969 م .

(50) النذب . بتشديد النون مع الفتح وسكون الدال ، هو السريع الى الفضائل ، كما
يطلق على الظريف النجيب ، والجمع منه ندوب وندباء .

(51) الابريز . الذهب الخالص .

(52) لعله يقصد بالاول . البحر المتوسط ، وبالثانى . الخليج العربى .

الرياضة خمائلها ، ومراقبة لربه ، وانتشاق لروح الله من مهبه . ودين
لا يعجم عوده ، ولا تخلف وعوده .

ولكم ظهر علينا — معشر بنيه — شارة تجلى بها العين ، أو اشارة
كما سبك اللجين ، فهي اليه منسوبة ، وفي حسناته محسوبة . فانما هي
أنفس راضها بآدابه ، وأعلقها بأهدابه . وهذب طباعها ، كالشمس تلقى
على النجوم شعاعها ، والصور الجميلة تترك في الاجسام الصقيلة
انطباعها (53) ، وما عسى أن أقول في امام الائمة ، ونور الدياجى
المدلهمه !!

وقد أثبت من عيون قصائده — الذى علق الاحسان في مصائده —
كل وثيق المبنى ، كريم المجنى ، جامع بين حصافة اللفظ ولطافة المعنى .
ومن ذلك في وصف :

43 — الكاتب أبى عبد الله اللوشى (54)

شاعر مفلق ، وحسيب معرق . طبق مفاصل الكلام بحسام (89 : أ)
لسانه ، وقلد نحور الملوك ما يزر بجواهر السلوك من احسانه ، ونشأ

(53) اشارة لطيفة ، ولفتة كريمة من المؤلف نحو أستاذه ، واعتراف بالفضل في
صورة بلاغية رائعة .

(54) نسبة الى مدينة « لوشة » وهي بالاسبانية Loja تقع على بعد 55 كم
غرب غرناطة ، وكانت احدى المدن الاندلسية الشهيرة ابان الحكم الاسلامى ،
وقد استولى عليها الاسبان خلال حروب الاسترداد عام 891 هـ (1486 م) قبل
غرناطة بست سنوات تقريبا ، وهي الآن مدينة اسبانية متوسطة المساحة ،
يقع بعض عمرانها بأعلا ربوة صخرية ، والبعض الآخر من المباني في منخفض
الوادي ، وعلى مقربة منها بسيط فسيح من المزارع والحدائق يمتد حتى سفح
الجبال القريبة منها ، ويخترق (لوشة) نهر شنيل من الشمال ، ويقدر عدد

في حجر الدولة النصرية (55) راضعا ثدى نعمائها ، ومستظلا
بسمائها ، ومفضلا على مداحها ، وحائزا المعلى من قداحها . ولسلفه
بخدمتها الاختصاص القديم ، والمزية والتقويم ، والتمتات الى كريم ذمامه
واستقر في يد الراعى زمامه . ونطق بالشعر قبل أن ينطق بالشعر
خده ، فأتى منه ببحر لا يعرف الجزر مده .

وأما الطريقة الهزلية فهو فارس مجالها ، وامام رجالها ، ورب
رويتها وارتجالها وله همة تبذ من يباريها ، واخلاق تفتقر الى من يداريها .
طوبى — فيما فرط — بالحضور مع الكتاب ، وملازمة خدمة الباب .
فتجنى على عادته ، وتوعد باسقاط مرتبته ، فلم يرغب في اعادته . بل كبر

سكانها حاليا بحوالى 35 ألف نسمة ، بينما كان سكانها — على عهد ابن
الخطيب المولود بها — يجاوز هذا العدد بكثير كما تقول الرواية الاسلامية . هذا ،
ولم يبق الان من الآثار الاسلامية بهذه المدينة سوى اطلال القسبة او القلعة ،
وبقايا بناء في باطنها يرجح انها كانت مسجدا ، وهو عبارة عن ثلاثة عقود على
على صفيين ، ولكن لا تشتمل على اية نقوش أو كتابات ، ويسمى هذا المكان
بالجب ALGIB ، وتقع الكاتدرائية على مقربة من القسبة وفوق المسجد
القديم ، استنادا الى التقليد العام للسياسة الاسبانية ، التى كانت تقيم
الكنيسة العظمى في كل بلد مفتوح على انقاض المسجد الجامع ، ومن المعروف
ان المسجد الجامع كان يقع وسط المدينة دائما ، ويدعم هذا ان الكاتدرائية تحتل
اليوم وسط المدينة . وتجدر الاشارة أخيرا الى أنه — حتى هذه اللحظة — لم
يعثر عالم أو مؤرخ على أى أثر يتعلق بحياة الوزير ابن الخطيب في هذه المدينة ،
— وهى مسقط رأسه — أو حتى موقع بيته ، لطول العهد ومرور السنين الطوال .
راجع . نفس المصدر السابق ص 58 — 59 .

(55) آخر دولة اسلامية تقلدت الحكم بالاندلس ، وتعرف أيضا بدولة بنى الاحمر ،
كانت عاصمتها غرناطة ومؤسسها هو أول ملوكها الغالب بالله أمير المؤمنين
أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن خميس ابن نصر بن قيس الخزرجى
الانصارى ، وذلك عام 1238 م ، وكان آخر ملوك هذه الدولة أبو عبد الله محمد
الآخر ، حيث سقطت غرناطة على عهده بالتسليم في يد الملكين الكاثوليكين
فرناندو وإيرابيل في 2 يناير 1492 م وهكذا انحسر المد الإسلامى عن أوربا منذ
ذلك الحين ، بعد أن عمرت الدولة الاسلامية في الاندلس زهاء ثمانية قرون
راجع . المصدر السابق ص 19 — 21 .

على الخدمة أربعا وسلم ، وما ارتضى لها ولا تألم . وعكف على إقامة أوده ، بانتجاع غلة بظاهر بلده ، بأشرها بنفسه ، وجعلها معنى راحتته ومعنى أنسه ، واتخذها وقاية لماء وجهه (89 . ب) الى أن يحل في رسمه .

وهو من أهل الوفاء وحفظ العهد ، المشاركة في الرخاء والجهد ، والانقباض عن هذا الغرض والزهد . الى حسب تطرزت الدفاتر بآثاره وتضوع الحبر مسكا بأخبار أخباره . وشعر بلغ في الاجادة الغاية ، ورفع للمحسنين الراية .

ومن ذلك في وصف :

44 - أبى بكر بن الحكيم

ماجد أقام رسم المجد بعد عفائه ، وأيقظ طرفه بعد اغفائه . محله محل ضيفان ، وقرع جفان . ومنهل وارد ، وفطنة ضال من العلاء وشارد . مثواه لا يخلو من قرى جزيل ، لقاصد أو نزيل . الى غير ذلك من التحلى بحلية الآداب ، والمبادرة الى اكتساب المعلومات والانتداب .

برز في علم الحديث وروايته ، واجتنى ثمرة رحلة أبيه وهو في حجر دابته ودون - الآن - الفهارس ، وأحيا الاثر الدارس . وارتنقى من الكتابة الى المحل النبويه ، واستحق رتبته من ميراث أبيه ، فأينع روحه وتأطر (56) ، وأرج (90 . أ) وتعطر .

وله شعر أنيق الحلية ، جاز في نمط العلية (57) . وسيمر - في أثنائه - ما يدل على قدره ، ويشهد بسعة صدره .

(56) تأطر . تننى .

(57) نمط العلية . هيئة كبار القوم .

ومن ذلك في وصف :

45 - أبي جعفر بن صفوان الملقى

فارس البلاغة المعلم ، وحجة الادب التي تسلم . والبطل الذي لا ترد شبة يقده ، ولا تحل مبرمات عقده . من جهذ راض صعب البيان وساسها ، وميز أنواعها وأجناسها ، وأحكم ضروب العبارة ونظم قياسها . فأحل الاسود عرينها والظباء كناسها . الى ذهن يأنى الغوامض فتنبج ، ويقرع أبواب المعميات فيلج ، وهمة يود فرقد السماء وسهاها أن يبلغ منتهاها . أخذ من العلوم بنصيب ، ورمى في أغراض التعاليم بسهم مصيب . فركض في مجالها ، ورحل الى لقاء رجالها . ودعى لاول أمره - للكتابة لما اشتهرت براعته . فأجاب وامتل ، وراش (58) سهام بيانه ونث (59) .

ثم كر والدولة قد جفت (90 . ب) منها القواعد ، وأنجزت بادالتها المواعد . فاصطنعته الدولة الاسماعيلية (60) بجانبها ، وقلد سر كتابها ، والهيحاء تدور رحاها ، والامور لا يتبين منحاه . فلما وضعت ،

(58) رايش السهم . الصق به الريش .

(59) نث الكنانة . استخرج نبالها فنثرها .

(60) نسبة الى السلطان ابي الوليد اسماعيل الاول بن فرج ابن نصر ابن الاحمر ، تولى السلطة في غرناطة في شوال 713 هـ (أبريل 1313 م) وفي عهده قويت حركة الجهاد بالاندلس ، اثر متابعة القشتاليين غزواتهم ضد مملكته ، حتى حقق نصرا ساحقا عليهم ، ولكن لم يمض على هذا الانتصار سوى فترة وجيزة ، حتى قتل السلطان عقب عودته الى غرناطة بيد ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة ، قتله غدرا لاسباب شخصية في 26 رجب 725 هـ (7 ديسمبر 1324 م) .

راجع . ابن الخطيب في « الاحاطة » ج 1 ص 397 ، واللمحة البدرية ص 71 - 74 ثم ابن خلدون في « العبر » ج 4 ص 172 ، ج 7 ص 250 . ط القاهرة 1284 هـ .

الحرب أوزارها ، وخففت الامور زارها ، اثر الرجوع الى وطنه ، وأجر هداه في ذلك فضل رسنه . وضلت الخدمة عنه فما نشدها ، وقصر نفسه على ما يقيم أودها . ولم يثن بعد الكر عنانه ، ولا أعمل في خدمة ملك بنانه . وكل ما صدر عنه — من نظم تروق أسرته ، وتتشوق اليه تيجان الملك وأسرته — فالتصوف مجاله ، وفي غرض رويته وارتجاله .

ومن ذلك في وصف :

46 — أبى اسحاق ابن زكرياء (61)

حامل لواء الخط ، والمنفرد بأحكام المشق والقط ، ومن تفتقر الى بنانه المخاطبات السلطانية افتقار المشروط الى الشرط . شديد التحفظ ، مقدرا للكلام خير التلفظ عظيم البشاشة والبر ، أمين على السر . (91 . أ) الى نفس جبلت على الخير ، وأخلاق حسنة السيرة رفيعة السير ، وحياء كثف جلبابه ، وسد في وجه النية بابه . وكلف بالعلم وأوضاعه ، والتطلع على رقاعه . وبكفيه — فضلا لا تخبو ناره ، ولا يخفى مناره — ما خلد من كلام شيخ الجماعة ، وعلم الصناعة ، فقد أودعه بطون الاوراق ، وجمعه بعد الافتراق وأطلع نوره بادی الاشراف ، وألبس الايام به حلا أبهى من حل صنعاء العراق .

والشعر — وان كان قليلا ما يعنى باجادة صناعته ، ومعاناة بضاعته — فحظه منه لطيف الهبوب ، حسن الاسلوب .

(61) هو الشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بن زكرياء ، من مشاهير قضاة الاندلس ، عرف عنه فعل الخير والانقباض عن الناس . قرأ على أبيه ، ثم على الاستاذ أبى جعفر بن الزبير ، وأخذ بسبته عن أبى اسحاق الغافقى ، كما لازم أبا عبد الله التونسي صوفى العصر ونظيره في هذا المذهب كأبى جعفر ابن الزيات وأبى الطاهر بن صفوان وغيرهما ، وقد اشتغل بالكتابة في الـدار السلطانية فترة من الزمن ، كانت ولادته في الثالث والعشرين من شهر شعبان من عام 751 هـ .

ومن ذلك في وصف :

47 - أبى اسحاق بن الحاج

طلع شهابا ثاقبا ، وأصبح بشعره للشعرى مصاقبا (62) . فنجم وبرع وتمم المعانى واخترع . وكلف بالادب وهو غلام يافع ، وله من الحسن - لكل قلب - شافع . فأترع كاسه ، ونضد ريحانه وأسه ، ونبه للصبوح - من بعد الكر - أناسه . ولم يزل دوحه يتأرجح ، وعقائله شائعة تتبرج ، (91 : ب) حتى دعى للكتابة ، وترشح لتلك المثابة ، يطرز المعارف بمرقوم أقلامه ، ويشنف المسامع بدرر كلامه .

وأزمع الرحيل لما خاف على بضائعه الضياع ، فركب الفلك وشرع الشراع ، فحج وزار ، وشد للطواف الأزار . ثم هفا الى المغرب وحوم ، وقفل قفول النسيم عن الروض بعدما تلوم ، فاستقر بعد (فى) ظلال الدولة الموحدية ، فحط بها على نار القرى ، وصمد عندها صباح السرى . ثم لم يلبث أن تنقل ، ووجد الجميم فعافه وتبقل . وهو الآن فى جملة كتاب المغرب ، حساما فى البلاغة دامى المضرب .

أخذ من العلوم بنصيب ، ورمى فى أغراض التعاليم بسهم مصيب .

ومن ذلك في وصف :

48 - أبى القاسم بن قطبة

سابق ركض فجلى ، وشارق طلع فتجلى ، وفاضل تحلى من خلال البارة بما تحلى . أتى من أدواته بالعجائب ، وأصبح صدرا فى الكتاب

(62) الشعرى . الكوكب الذى يظهر فى الجوزاء ، ويبدو واضحا فى شدة الحر . والمصاقب . الملاصق المجاور .

وشمسا في الكتائب . وكان أبوه — رحمه الله — بهذه البلاد (63) قطب أفلاكها ، وواسطة أسلاكها ، (92 : أ) وموتم أملاكها ، وصدر رجالها ، وولى ربات حبالها ، لصدق يقينه ، ومحافظته على أركان دينه . قد نثل بينه سهمها سهمها ، فخبره براعة وفهما ، وألفاه بينهم ماضيا شهما . . (64) منه نجيبا ، ودعاه الى الجهاد فألقى منه سميعا مجيبا . فصحب السرايا المغيرة ، وحضر من الوقائع الكبيرة والصغيرة ، وبأثر الحرب وبأسها ونازع ذلك الشرب كأسها ، على مصاحبة البعوث ، وجوب السهول والوعوث ، فما رفض اليراعة للباتر ، ولا ترك الدفاتر للزمان الفاتر .

ولم يزل يبهر بأدواته ، وينتج البدائع بين قلمه وأدواته ، فان خط فاخر ببراعته للخط الى خلق سلس المقادة ، ونفس للمكارم منقادة . وأدب بديع المقاصد ، قاعد للمعانى بالمراسد . واستأثرت به الكتابة السلطانية فشعشع أكواسها وعاطاها ، وكان من تلك القلادة الرفيعة وسطاها . وله همة يحسدها فرقد الافق وثرياه ، وكتابة تنازع الروض طيب رباه .

ومن ذلك في وصف :

49 — أبى بكر القرشى

قريع مجد وحسب ، متقدم — على تأخر زمانه — بذات ومنتسب ، من دوحة الشرف التى لا يزوى نضيرها ، ونبعة الديانة التى لا يغيص نميرها . اذا ذكر الصالحون . . (65) بعمره ووالده ، وأكرم بطريفة وثالدة . أصبح لعبة الطرف ناسما ، فلا تراه الا ضاحكا باسماء . الى

(63) الاشارة الى الاندلسى .

(64) محو فى الاصل . وفى نسخة أخرى « قد مر » مكان المحو .

(65) محو فى الاصل . وفى نسخة أخرى « بحى هلا » مكان المحو .

حلاوة الضرائب والشمائل ، والادب المزرى بأزهار الخمائل . فما شئت من مداعبة تمتزج بالنفوس ، ومجاورة تزرى بالكؤوس ، وأدب عذب مذاقه ، اعترف به فربسان الكلام وحذاقه ، ومعان جاءت من السهولة بما تقتضيه أخلاقه ، وعفاف صفت أذياه وطرف صفت جرياله .

ومن ذلك في وصف :

50 — أبى عبد الله بن جزى (66)

فرع محل بسق ، وثاقب طلع فجلى الغسق . وأديب قرع من الادب كل شاهق ، وحدث عما بين عاد وبينه وصدغاه فى خدى غلام مراهق . فند أقرانه وأترابه ، وأجال (93 : أ) فى ميدان الفنون غراته . فأصبح نادرة أوانه ، وواسطة عقد اخوانه . فهو النبیه الذى قل له الشبيه ، والوجیه الذى قصر عن لحاقه الوجیه (67) . اذا ذكرت الغرائب قال : أنا لها ، ولو تعلقت الغوامض بالثريا لنالها . الى خلق أعذب من

(66) هو الكاتب أبو عبد الله بن جزى الكلبى ، ولد بغرناطة فى شوال 721 هـ (يناير 1321 هـ) ، وتولى منصب الكتابة فى ديوان سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف الاول (733 — 755 هـ) فترة من الوقت ، فحاز اعجاب معاصريه من الادباء ، وله مدائح فى هذا السلطان ومعاصره بالمغرب أبى الحسن المرينى . وقد ظل فى هذا المنصب حتى دس له أعداؤه عند أبى الحجاج ، الذى اقتصاه بعد تعذيبه ، فشد رحاله عن الاندلس الى المغرب ، حيث التحق بديوان الكتابة فى انبلاط المرينى لدى السلطان أبى عنان فارس ، حتى وافاه أجله فى 29 شوال 758 هـ أكتوبر 1356 م ، حيث دفن بفاس . ويعتبر ابن جزى — فوق صناعته الادبية — من العلماء الافذاذ ، بما شهر عنه فى علوم اللغة والتاريخ والحساب ، بشهادة الامير اسماعيل ابن الاحمر فى كتابة « نثر فرائد الجمان » .
راجع : المقرئ فى « نفح الطيب » ج 8 ص 40 — 42 ، ثم يوسف الاول ابن الاحمر « للمحقق ص 57 ، ونثر فرائد الجمان ، ص 292 — 307 . بيروت 1965) .

(67) أراد بالوجیه الاول : سيد القوم ، وبالثانى : الفرس المبادر .

الضرب (68) ، وأسمى من بلوغ الارب ، ونبل لا تطيش نباله عن
غرض ، وذكاء يكشف كل مشكل مهما عرض .

وله أدب تود العقود محاسن شذوره ، وتقتصر الصدور عن اعجازه .
وصدوره ، وتتضاءل أهلة المعانى عند طلوع بدوره .

ومن ذلك فى وصف :

51 - أبى العلا بن سماك

كاتب ماشق ، وأديب لريح الادب ناشق . ذو طبع سائل ، وكلف
بالمسائل ، فلا يفتر عن تقييد ونقل ، وجلاء للفوائد وصقل . كتب مع
الحلبة فأحكم الخط وأتقنه ، وتلقى السجع وتلقنه . وأنشد الشعراء
فأجرى بغير الخلاء ، وجعل دلوه فى الدلاء .

وله بيت معمور فى القديم (93 . ب) بصدور قضاة ، وسيوف فى
الدين منتضاة . ولم يزل منتظما فى السلك ، ومرتسما فى كتاب الملك .
الى أن عضه الدهر بنات خطوبه ، وقابله بعد البشاشة - بقطوبه ،
فتأخرت - فى هذه الايام - جرايته ، ونكصت - على العقب - رايته .

وقد أثبت من شعره ما يشهد باجادته ، وينظمه فى فرسان الكلام
وقادته .

(68) الضرب : بتشديد الضاد وفتحها مع الراء ، العسل الابيض .

ومن ذلك في وصف :

52 — محمد بن عبد الله بن الخطيب . رحمه الله

(المؤلف)

ان خلطت العذب بالاجاج ، ونظمت مخيلتي بين در هذا التاج ،
فلم أبغ تعريفا ولا تنبيها ، ولا اعتدت أن أقرظ نفسي وأزكيها . ولكني
بأوت نفسي (69) . عن مفارقة أبناء جنسي . فزاحمتهم في أبواب هذه
الآداب ، وقنعت باجتماع الشمل بهم ولو في الكتاب .

ولما رأيت حلهم الموشية الطرر ، وحلاهم الواضحة (94. أ)
الشيأة والغرر ، نافستهم منافسة الكفاء في حلة تزين منكبي ، وراية
نتقدم موكبي . فجلبت فضلا حلاني به رئيس الصناعة ، وامام
الجماعة (70) ، في بعض المنشورات السلطانية ، البسني به الشرف
ضافي الاردان ، وتركني معلم ذلك الميدان . وهوى ظهر أثر اعتقاده الجميل
فيه ، وفتح له أبواب القبول والتنويه — تشرع الى الغر الوجيه ، والقدر
النبيه ، ورعى له وسائلها التي كرمت معانيها ، وعذبت مجانيها ، وتأسست
على قواعد البلاغة مبانيها . وعرف ماله من الاصاله التي تميز في اعيانها ،
وبراعة الادب التي أحرز خصل رهانها ، وتلقى باليمين راية فرسانها .

ولما اختصه بالتقريب والايثار ، واعتمده بولايات ملكه الكبار ،
وقربه في بساط ملكه حماية وعناية ، وأطلع من آيات السعادة آية ،
وابتداً بالخطط التي هي لغير غاية — رأى أن يستعمله فيما هو لديه

(69) أراد الا ينسلخ عن قرنائيه .

(70) يقصد به « الشيخ الرئيس أبا الحسن علي ابن الجباب » رئيس ديوان
الانشاء في البلاط النصري ، والذي تقدمت الترجمة له من المؤلف .

أهم موقعا ، وأعز موضعا . (94 . ب) وأن يجمع له الكتابتين انشاء وديوانا ، ويطلع له وجوه الرعاية غرا حسانا . فحسبى ما خلد لى بذلك من مجد ، وقلدنى من فخر أشهر من نار على نجد .
وأما شعري ونثرى فقد أثبت منه — بعد سؤال الاغضا ، والنظر بعين الرضا — ما تعلق بالذكر ، واحتجب بحجاب الضمير من بنات الفكر .

ومن ذلك فى وصف :

53 — أبى جعفر بن خاتمة (71)

ناظم درر الالفاظ ، ومقلد جواهر الكلام نحور الرواة ولبات الحفاظ، ذو الادب الذى أضحت شوارده حلم النيام وسمر الايقاظ ، تمكن فى

(71) هو الشيخ أحمد بن على بن محمد أبو جعفر الانصارى . ولد بمدينة المرية عام 734 هـ (1333 م) وقضى شطرا هاما من حياته استاذا بمدرسة غرناطة، واشتغل بالتأليف ، فمن مؤلفاته رسالته « مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية » ولم تثنه مشاغله العامة عن قرض الشعر ، فمن قوله فى الحكم:

هو الدهر لا يبقى على عائد به فمن شاء عيشا يضطرب لنوائيه
فمن لم يصب فى نفسه فمصابه بفوت أمانيه وفقد جبابه

وتجدر الاشارة — فى هذه المناسبة — الى أن ابن الخطيب حينما فكر فى مغادرة الاندلس ذات مرة كتب الى صديقه « ابن خاتمة » رسالة رقيقة ، يستعطفه بها أن يعدل عن هذه الفكرة ، ويقول له « انكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقتها ، وواسطة سلكها وطراز ملكها ، وقلادة نحرها وفريد دهرها . وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على المعلوم والمخصوص . ثم أنتم مدار افلاكها ، وسر ساسة املاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان احسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد ادارتها ، وبه قوام امارتها » فأجابه ابن الخطيب برسالة مؤثرة كذلك .

توفى « ابن خاتمة » عام 770 هـ (1369) ودفن بمسقط رأسه المرية .
راجع : ابن الخطيب « الاحاطة » ج 1 ص 247 — 267 ، تحقيق « عنان » ؟
ثم المقرئ فى « أزهار الرياض » ص 265 — 270 ، حيث يورد كلا المؤلفين هاتين الرسالتين كاملتين .
...

بياض طرسه وسواد نفسه سحر اللحاظ . رفع بقطره راية هذا الشأن
على وفور لبته ، وجدع قمة البيان على سمو هصبته ، وفوق سهمه الى
نحر الاحسان فأثبتته في لبته . فان أطال شأى الابطال (72) ، وكاثر
المنسجم الهطال . وان أوجز فضح وأعجز ، فمن نسيب تهيج به
الاشواق ، وتضييق عن زفراته (95 . أ) الاطواق . ودعابة تقلص ذيل
الوقار ، وتزرى بأكواس العقار . الى انتماء للمعارف ، وجنوح الى ظلها
الوارف .

ولم تزل فضائله بتلك البلدة (73) تنفسح آمادها ، حتى تنافس
فيه قوادها ، فاتخذوه كاتب أسرارهم ، وترجمان أخبارهم .

وقد أثبت من مقطوعات شعره ، ونفثات سحره ، ما يستأثر السامع ،
ويقرط المسامع .

ومن ذلك في وصف :

54 — أبى عبد الله بن بقى

مدير لأكواس البيان المعتق ، ولعوب بأطراف الكلام المشقق .
انتحل — لأول أمره — الهزل من أصنافه ، وجنى ثمرة الابداع لحسن
قطافه . ثم تجاوزه الى المغرب وتخطاه ، فأدار كأسه المترع وعاطاه .
فأصبح لفنيه جامعا ، وفي فلكيه شهابا لامعا . وله ذكاء يطير شرره ،
وادراك تنبلج غرره . وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض .
وعلى ذلاقه لسانه ، وانفساح أمد احسانه ، شديد الضنائة
بشعره ، مغل لسعره . أجاب (95 : ب) أحد الادباء ممن خطب أدبه ،
واستدعاه للمراجعة وندبه .

(72) شأى الابطال : سبقتهم .

(73) المراجعة .

ومن ذلك في وصف :

55 – أبى على حسن بن عبد السلام

فارس براعة بارعة ، ورب بديهة مسارعة . لاك الكلام وعلكه ،
واستحق الاحسان وملكه ، وأدار على قطب الاجادة فلكه ، وساعده الدهر
فتحرى طريق الشرف وسلكه . ولم يزل القدر يساعده ، والتدبير ينوء
به ساعده ، حتى تجلت بالثراء حاله ، وعظم جاهه وماله . ولما تقلبت
الفتنة بدولته ، وعجمت عود صولته – اثر الرحيل ، وفارق ربه المحيل .
واستقر بحضرة تونس يروم الوجهة الحجازية ، وقد تبرأ من قول
الشاعر :

« وما أنا الا من غزية »

فأتاه بها حمامه ، وانقضت – دون أهله – أيامه .

وله أدب غض الجنا ، أنيق اللفظ والمعنى ، على قصر بابه ، وقلة
انتجاعه .

ومن ذلك في وصف :

56 – أبى الحسن بن الصباغ

اللسن العارف ، والناقد لجواهر المعاني كما تفعل بالسكة
(96 . أ) الصيارف . والاديب المجيد ، الذى تحلى به العصر والجيد .
ان أجال جياذ براعته فضح فرسان المتهارق ، وأخجل بين بياض طرسه
وسواد نفسه الطرر تحت المهارق . وان جلى أفكار أفكاره ، وأثار طير

البيان من أوكاره — سلب الرحيق المقدم (74) . ذو همة لا يرتد لها طرف ،
واباية لا يفل لها غرب ولا جرف .

وفي هذه الايام دعاه شيخ الغزاة (75) الى كتابة سره ، وقام
بواجب بره . وله أدب غض ، وزهر — على مجتنيه — مرفض .

(74) المقدم : بضم الميم وتشديد الدال ، الشبع حمرة .

(75) هو القائد يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الحق أبو زكريا . ولد بظاهر تلمسان
عام 691 هـ (1288 م) يتصل نسيه بملوك بتى مرين ، ولى مشيخة الغزاة
بالاندلس (قيادة الجيش) مرتين . أولاهما قبل هلاك الوزير ابن المحروق في
عهد السلطان محمد الرابع ، والآخرى بعد أن نكب السلطان يوسف الاول
أسرة القائد السابق الشيخ ابن ثابت ، وقبض على هذا الاخير ، ثم نفاه الى
أفريقية (تونس) . ومن صفات الشيخ أبى زكريا شدة البأس والمرونة وعراقة
النسب والدهاء والوعى للامور في عمق ، والتفانى في العمل لصالح الاسلام
والعرش النصرى ، رأس قبيلته ، والبحاثة عن الاخبار ، والخبير بالانساب ،
وذو الدراية بالسنن قومه ، يعى الكثير من الحكم والتاريخ ، عفيف لا تناله
الالسن الا مدحا ، ولا ينازعه المنصب منافس .

كانت ولايته للقيادة ورئاسة القبيلة أواسط شهر صفر 727 هـ (9 يناير 1327 م)
بادىء ذى بدء ، واستمر بها حتى 7 محرم 729 هـ (4 ديسمبر 1327 م) ،
حيث بقى معزولا ، الى أن أعاد اليه رتبته كقائد السلطان يوسف الاول في يوم
29 ربيع الاول 741 هـ (22 سبتمبر 1340 م) وظل في منصبه حتى نهاية
عصر هذا السلطان ، ثم جدد له ولده الفنى بالله محمد الخامس القيادة ،
وضاعف حظوته ، ونوه رتبته .

وقد بقى هذا القائد في منصبه حتى أوائل شهر رمضان 762 هـ (يونيه 1361 م)
حيث فر الى قشتالة في ظروف خاصة لاجئا سياسيا فترة من الوقت ، ثم عاد
الى الاندلس متمتعاً بسابق حظوته لدى الفنى بالله بعد استرداده لملكه ،
ولكن السلطان قبض عليه وعلى ابنه عثمان يوم 13 رمضان 764 هـ (1363 م)
وسجنهما بقصبة « المنكب » ، ومن ثم نفاه الى أفريقية ، ومنها التحق بفاس
التي قضى بها أخيرا .

راجع : ابن الخطيب في « الاحاطة » نسخة جاييجوس بالاسكوريال 1673
لوحدة 339 — 400 من المخطوط .

ومن ذلك في وصف :

57 - أبى عبد الله الطراز

روضة أدب وظرف ، لما شئت من حسن وعرف . أشرفت ذكاء
لفرط ذكائه ، وتضوعت آدابه تضوع الروض غب سمائه . الى حلاوة
الخلائق والضرائب ، والشيم الحسنة والمعاني الغرائب . ترتاح الى
مجالسته المحاضر ، ويرف من أفنان فكاهته الزهر الناضر . فما شئت
والمشاركة في كثير من الفضائل .

من توقيع رفيع (التقدير) ، وتندر بالاصابة جدير ، ولطافة الشمائل
وله (96 ب) نفس تطمح الى بلوغ المعالى ، وفكرة تحوط حل
البدائع فى الطراز العالى . وأدب كالروض باكرته السحائب ، وحملت
أرجه الصبا والجنائب .

وقد أثبت من شعره كل عطر النسيم ، سافر عن المحيا الوسيم .

ومن ذلك في وصف :

58 - أبى جعفر بن داود الوادى آشى (76)

شيخ العمال المؤتمن على الجبابة والمال ، المستوفى شروط الفضل
على الكمال . تواضع - رحمه الله - مع العلو ، ولبس شعار السكون

(76) نسبة الى مدينة وادى آشى Guadex ، تقع شمال شرق غرناطة
على نهر فردس ، وتبعد عن غرناطة بنحو 55 كيلومترا . اشتهرت فى العصر
الاسلامى بمعادنها وخصوبتها وصناعاتها ، كما تمتاز بطقس ممتاز على مدار
العام ، وهى المدينة التى نفى اليها آخر ملوك الاندلس قبل ان يرحل نهائيا
الى المغرب .

راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ص 192 - 193 ، نشر ليفى
بروفنسال (ليدن 1938 م)

والهدو ، وبذل المجاملة للصديق والمسالمة للعدو . ولازم مجالس
الملوك بحيث يضر وينفع ، ويحط ويرفع . فما شاب بالاساءة احسانا ،
ولا أعمل — في غير المشاركة — لسانا . الى غير ذلك من الادب العطر
النسيم ، السافر عن المحيا الوسيم . واشتهر بالوفاء اشتهار دارين
بطبيها ، واياها بخطبيها (77) ، فكان حامل رايته ، ومحرز غايته .
ومضى لسبيله فقيدا أعم بفقد وخص ، وهاص أجنحة الحاجات
وقصص .

وله أدب يصيب شاكلة (97 . أ) الرمي بنباله ، ونظم تضحى
المعاني قنائص حباله .

ومن ذلك في وصف :

59 — أبى عبد الله بن حسان

كاتب انشاء وديوان، وصدر حفل وايوان . وفارس يراعة، وروض
أدب وبراعة . يملأ الرسائل لا يجف مدادها ، وينظم القصائد لا يعيبه
امتدادها ، ويحبر الرقاع ويوشيهها ، ويصور المعاني وينشيهها ، ويدبج
برود البدائع ويطرز حواشيها . الى خط تهيم الالفاظ بالتماح
سطوره (78) وتغار الرياض بمسطوره .

(77) هو قس بن ساعدة الايادي خطيب الجاهلية المعروف ، ومضرب المثل فى
البلاغة والحكم والمواعظ كان يؤمن بأن هناك الالهة قومه ،
واستشعر التوحيد فى مناسبات عرفتها المؤرخات عن فترة الجاهلية قبل
بـزوغ فجر الاسلام .

(78) لمح والتمح البصر : امتد الى الشيء ، ولمح الرجل الشيء ، أبصره بنظر
خفيف أو باختلاس النظر ، ولمح الشيء بالبصر : صوب بصره اليه ، وهو
المراد فى النص .

وأبوة ومجادة ، وبيت أمطره الفضل وجاده . وأنجبت منه أبوة
صاحب الاشغال — رحمه الله — خلفا سد مسده ، وتجاوز في السر
وماجده .

ولم تنزل الاسماع تخطب بدائعه ، وأسواق الاسواق تغلى بضائعه ،
حتى أصبح فردا في أترابه ، وفذا في أغرابه . وله نفس عذرية الشمائل ،
ولسان هام بزهر الرياض وظلال الخمائل ، وطبع الى شيم الرصافة
والجسر (79) مائل .

ومن ذلك في وصف :

60 — أبى عبد الله بن مصادف الرندى (80)

(97 . ب) من شيوخ الطريقة العملية ، ومنتحلى الصناعة الادبية .
كان — رحمه الله — مجموع ظرف ، ومسرح كل طرف ، من خط بارع ،
وأدب — الى دواعى الاجادة — مسارع .

ولما صار أمر رندة — كالأها الله — عند اشتعال الحرب ، وتوالى
الضرب — الى ملك المغرب (81) قلده أعمالها ، وجعل الى نظره مالها . ثم
نقل الى بعض الولايات ببر العدو وبها قضى نحبه ، وفارق صحبه ، بعد
معاناة خطوب ومعاشرة صروف من الدهر وضروب .

وله أدب طاب وتأرج ، وعطف على رسوم الاجادة وعرج ، ومعان
تتحلى بحلى العذارى وتتبرج .

(79) يشير الى قول الشاعر :

عيون المهابين الرصافة والجسر جابن الهوى من حيث أدري ولا أدري
ولابن البار أيضا في وصف « بلنسية » غناء بالرصافة والجسر .

(80) نسبة الى مدينة رندة ، وقد سبقت الإشارة اليها في مناسبة أخرى .

(81) هو السلطان أبو الحسن على المرينى .

ومن ذلك في وصف :

61 - أبى إسحاق بن جعفر

شيخ توقيعه نادرة، وفكاهة واردة وصادرة . ونظم أنيق الديباجة،
لطيف الزجاجة ، عطر النفحة عذب المجاجة . وظرف لا يذوى دوحه ،
وأدب تأرج روحه .

وقضى - رحمه الله - وقد خلف عقيما نجيبا ، وأبقى من ابنه
أبى جعفر مستمعا للفضل مجيبا . جاز في الاحسان طلقة ، وحاسن
(98 . أ) فلكة .

وقد أثبت من شعره ما يقر بوفور مادته واستقامة جادته .

ومن ذلك في وصف :

62 - أبى جعفر

كاتب حساب ، ومنتسب للآداب أى انتساب . ان فكر وري
فأعمل ، وان ابتدر وارتجل أولد البدائع وانتحل . وله منطق ان حاول
الصعاب فيلينها ، ويتناول الغوامض فيبينها ، ويجلو كل ساحرة الالباب
بروق جبينها . ويوسع المحاضرة امتاعا ، ويمد فيها خطوا وساعا .

وقد خطب من بيانه لهذا المجموع ، ولم أقف منه عند نبـرة
المسموع . لكنى اجتزأت منه بما تيسر ، وقنعت بما تحضر ، واكتفيت
برائقة الاثير ، وأقمت قليلة مقام الكثير .

ومن ذلك في وصف :

63 - أبي الحسن البربري المالقي

شاعر ينفق في سعة ، وينطق وسط المجمة . ومطبوع لا يتكلف ،
ومجيد اذا نهض البلغاء لا يتخلف . عانى النظم وزمنه كمثله غلام ،
ودهره تحية وسلام . ومدح فانتفع ، وشفع شعره للملوك فشفع . ولم
يزل يتصرف في الاعمال ، ويقابل الاحسان والاجمال (98 : ب) .
وقد أثبت من شعره كل محكم العقد ، شديد الوطأة على النقد .

ومن ذلك في وصف :

64 - أبي القاسم بن مقاتل المالقي

من حسناء الطريقة وصدورها ، والمحاسن لترائبها العاطلة
ونحوورها .

كان - رحمه الله - هضبة وقار وسكينة ، وذا مكانة في الفضل
مكينة . الى صدر سليم ومجد ضميم . وخلق عظيم السهولة ، وسمت
خليق بسن الكهولة . ولسان مغرى بالذكر وتقلب بين الجد والشكر .

والى ذلك ، فكانت له دعاية صائبة السهم ، ونادرة يتنافس فيها
أولو الفهم . ومجالسة طيبة وفكاهة غمامتها صيبة .

واستعمل في الولايات النبيهة (82) ، فحمدت سيرته وحسن
أثره ، وكرم خيره وخبره . وأنجب عقبا جاريا على سننه ، متخلقا من
السرو (83) بأحسنه .

(82) الولايات النبيهة : الاقاليم الشهيرة .

(83) السرو : بتشديد السين مع الكسر وسكون الراء ، وهو السخاء والمروءة .

وكان له أدب غض الجنا ، طيب اللفظ والمعنى . ومقطوعة حسنة المقاطع ، سافرة عن الحسن الساطع .

ومن ذلك في وصف :

65 — أبى زيد عبد الرحمن المينشتى

من شيوخ طريقة العمل ، المتغلبين من أحوالها بين الصحو والثل ، (99 . م) المتعللين برسومها حين اختلط المرعى بالهمل .
وهو ناظم أرجاز ، ومستعمل حقيقة ومجاز . نظم بها مختصر السيرة ، فى الألفاظ اليسيرة . ونظم جزءا من الزجر والقال ، نبه به تلك الطريقة بعد الأغفال .

ومن ذلك فى وصف :

66 — أبى جعفر ، المعروف بالبقيل — من أهل المرية

بقية سالحة ، وغرة فى الزمن واضحة . أرخ وقيد ، وأحكم بناء العبارة وشيد . ورقم الرسائل البدائع ، وحقق ببلده الأخبار وكتب الوقائع . فمجالسه عظيمة الامتاع ، ومحاضراته مقرطة الاسماع .
وله شعر جزل ، لا ينتكب لمعانيه غزل . وألفاظ صقيلة ، ومعان تتبرج تبرج العقيلة . وأغراض لا تطيش نبال نبها ، ولا تطمس لاجبة سبلها .

وقد أثبت منها ما يشهد باجادته ، ويدل على كرم مجادته .

ومن ذلك فى وصف :

67 — أبى جعفر بن جعفر — من أهل مالقة

(99 . ب) أديب مجيد ، وبطل فى الحساب نجيد . تقدم فى الطريقة

العملية وبرز ، وطرر طروسها وطرز ، ونفذ فأبرز . وعانى النظم
فأجاده ، واستقى غمام الادب فجاده ، وسلك الالفاظ وخلصها ، واستطرد
المعاني واقتنصها ، ومرت به النادرة فاغتتم فرصها وله أخلاق رقيقة ،
ونفس لكل عذرى شقيقة .

وقد أثبت من شعره ما وقع في يدي وارتسم في خلدي .

ومن ذلك في وصف :

68 - أبي على حسن بن الخطيب أبي الحسن القيباطي (84)

حسنى المذهب ، وهائم بكل عذار موشى وخذ مذهب . نشأ بين
يدى أبيه - رحمه الله - وحلقة درسه مكنس آرام ، ومثار صباية
وغرام ، ومطلع الشמוש والاهلة من أبناء الجلة فركض في الكلف ملء
عنانه ، ومكن الجنون السود من سويداء جنانه ، وعذب عنده تعذيبه ،
حتى اشتهر غزله ونسييه .

ولما نصب عود تلك الشبيبة ، وصوح نبت تلك الرياض العجيبة
- تعلق بالخدمة (100 م) فانتظم في أهلها ، وسار في حزنها وسهلها .
وظهرت عليه نبغات عبر لها اللجة ، وقطع الحجة ، واستقر ببجاية ،
فارتقد وارتفق ، وعرض شعره فعلا سعره ونفق . ثم ارتحل - على هذا
العهد - الى أم تلك المملكة (85) ، والقائمة بحساب تلك البلاد مقام
الذلّة . فاستند الى بابها ، وارتسم في سلك كتابها .

وقد أثبت من شعره المطبوع ، أيام مقامه بهذه الربوع .

(84) أنظر ترجمة هذا الاديب في مجلة الثقافة المغربية (العدد الاول - السنة الثالثة
عشرة - شعبان 1389 هـ) .

(85) يقصد بها غرناطة العاصمة .

ومن ذلك في وصف :

69 — أبى محمد ابن المربع (86)

من أهل بليش (87)

طويل القوادم والخوافى ، كلف — على كبر سنه — بعقائل القوافى .
شاب في الادب وشب ونشق ريح البيان لما هب . فجاور رقيقة وجزله ،
وأجاد جده واحكم هزله . فان مدح صدح ، وان وصف انصف ، وان

(86) هو الشاعر الفرناطى أبو محمد عبد الله بن عبد الله الازدى ، المعروف بابن المربع من مدينة بليش مالقة ، وقد تناوله ابن الخطيب في احاطته ، حيث ترجم له بافاضة ، وأورد الرسائل والقصائد التى تبودلت بينهما يومئذ ، وهو من كتاب المقامة المشهورين فى ذلك العصر ، وقد نقل له المؤلف مقامة ساسانية ، عرفت فيما بعد بمقامة العيد ، كان قد كتبها الى حاكم مالقة الرئيس « أبى سعيد فرج بن نصر » بغرض الحصول على أضحية العيد . وتتضمن هذه المقامة قصة قصيرة بطلها رجل متسول من بنى ساسان بارع الحيلة ، قد صمم العزم يوما على أن يحصل على كبش من الحاكم ، وبذل فى سبيل مطلبه هذا جهودا شتى ومضنية ، الامر الذى يفسر لنا هنا حياة الكد التى صادفها المترجم له من حياته ، كل هذا فى أسلوب طريف ، زانه السجع ، وتخللته الفكاهة . توفى هذا الشاعر بوباء الطاعون الجارف الذى اجتاح منطقة البحر المتوسط وقتئذ ، ودفن ببلدته أواخر عام 750 هـ .

راجع : ابن الخطيب فى مخطوطة « الاحاطة » نسخة الاسكوريال 1673 لوحة 227 — 230 ، وكذا المقرئ فى « نفح الطيب » ج 6 ص 315 — 136 ج 8 ص 209 — 210 .

(87) بلدة متوسطة تقع قرب مالقة (على مسافة 34 كلم) ، وتنسب اليها ، وتوجد أخرى تسمى « بليش الشقراء » ، وهى قرب « لورقة » كما أن هناك أخرى قريبة منها تسمى « بليش البيضاء » ، وبهذه المناسبة نذكر أن ابن الخطيب وصف الثانية فى كتابه « معيار الاختيار » فى ذكر المعاهد والديار « بأنها ثغر مجاور لحدود مدينة لورقة التى كان العدو يومئذ قد استولى عليها . وأما بليش مالقة فقد وصفها المؤلف أيضا فى نفس المعيار . وأما الثالثة فلم ترد لديه ، فربما استحدثت من بعد .

عصف قصف . وان انشأ دون ، وتقلب في أفانين البلاغة وتلون — أفسد
ما شاء وكون .

فهو شيخ الطريقة الادبية وفتاها ، وخطيب محافلها (100 . ب)
كلما أتاها . لا يتوقف عليه من أغراضها غرض ، ولا يضيع لديه منها
مفترض . ولم تزل بروقه تتألق ومعانيه بأذيال الاحسان تتعلق — حتى
برز في أبطال الكلام وفرسانه ، وذعرت القلوب لسطوة لسانه . وألقت
اليه الصناعة زمامها ، ووقفت عليه أحكامها . فشعشع مداحها ونبـه
خدامها . وأطلع نجومها ، وأرسل رجومها . وعبر البحر — لهذا العهد —
منتجعا بشعره ، ومنفقا — في سوق الكساد — من سعره . فأبرق وأرعد ،
وحذر وتوعد . وبلغ جهد امكانه في التعريف بمكانه ، فما حرك ولا هز ،
وان ذل في طلب الرفد فقد عز .

وما برح أن رجع الى وطنه الذي اعتاده ، رجوع الحديث الى
قتاده .

وقد أثبت من نزعاته وبعض مخترعاته ما يدل على سعة بـاعه ،
ونهضة ذراعه . وألمحت بشيء من سبب رحلته واغترابه ، وعودة
مرهفه الى قرابه .

ومن ذلك في وصف :

70 — أبى عبد الله المتأهل المعروف بعماتى من أهل وادى آش

(101 : م) ناظم أبيات ، وموضح غرر وشيات ، وصاحب توقيعات
واشارات ، ذوات اشارات . اشتهر ببلده اشتهار الشيب بالمفارق، وتألق

بأفقه تالق البارق . دخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه (88) بعد انتشار سلكه ، وخروج الحضرة من ملكه ، واستقراره بوادى آش مروع البال ، متعللا بقصيات الآمال .

ومن ذلك فى وصف :

71 - أبى المؤلف - رحمه الله (89)

ان طال الكلام ، وجمحت الاقلام - كنت كما قيل . ومادح نفسه

(88) يقصد المؤلف بالملك المخلوع السلطان محمد الخامس الفنى بالله ثامن ملوك بنى الاحمر فقد اندلعت الثورة هده فى غرناطة ، تزعمها أخوه الامير اسماعيل ، وذلك فى رمضان من عام 760 هـ (1359 م) فلجأ السلطان المخلوع الى وادى آش ومعه وزيره ابن الخطيب ، ومنها التحق بفاس لاجئا سياسيا لدى بنى مرين فى 6 محرم 761 هـ (8 ديسمبر 1359 م) ثم استرد الفنى بالله ملكه عام 762 هـ (1361 م) وبقي متربعا على العرش حتى توفى عام 793 هـ (1392 م) .
راجع : الاحاطة ، مخطوطة الاسكوريال 1673 لوحة 182 ، واللمحة البدرية ص 101 ، ثم « نزهة البصائر والابصار » للقاضى النباهى ، حيث حقق الجزء الخاص بدولة بنى نصر المستشرق الاسباني « اميليو لافونتى الكانترا » ص 63 طبعة مدريد 1859 م .

(89) أخبر عنه المؤلف فى « الاحاطة » بأنه ولد فى غرناطة عام 672 هـ (1273 م) واستقر بها حيناً ، ثم عاد الى « لوشة » مقر الاسرة ، ثم رجع الى غرناطة ، حيث التحق بخدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل الاول النصرى ، فهو بهذا « غرناطى الولادة والاستيطان ، لوشى الاصل ، طليطلية قرطبية » ، ولما توفى هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان عبد الله محمد الرابع التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضا ، ثم بديوان أخيه السلطان أبى الحجاج يوسف الاول ، حيث عاصر الرئيس ابن الجياب الذى منحه لقب الوزارة .
ويعتبر المترجم له من أكابر العلماء والخاصة ، ممن اصطفاهم السلطان أبى الوليد ليصير بهم بلاطه ، ضمن نخبة أخرى من الرؤساء والعلماء ، الذين أشرفوا على تربية أبناء السلطان ، فغرسوا فيهم بذور العلم والادب ، وأمدوهم بخبراتهم وتجاربهم ، كما تولوا لهم تسيير الشؤون بعد أبيهم .
توفى والد ابن الخطيب هذا قتيلا مع ولده الاكبر عبد الله - أخى لسان الدين - فى معركة طريف الشهيرة ، فى جمادى الاول 741 هـ (أكتوبر 1340 م) .
راجع : المقرئ فى « نفح الطيب » ج 6 ص 319 وما بعدها ، ج 8 ص 40 وما بعدها .

يقريها السلام ، وان أحجمت — فما استرسلت في الثنا ولا ألجمت — أضعت الحقوق ، وقاربت العقوق . هذا وله جرت طير البلاغة من أوكاره ، وحييته بعيون البيان وابكاره — لما قضيت بعد ، ولا قلت الا بالذى علمت سعد (90) ، فقد كان ذمر حزم (91) ورجل رجاء وازم (92) .

كان ببلده قطبه الذى عليه المدار ، وزعيمه الذى له الايراد والاصدار . وله المقام (101 . ب) النصرى وسائل قربى ، ومئات أناف أو أربى . ولما حل الملك الاسماعيلى (93) بذلك القطر ، ولاح بأفقه لياح هلال الفطر — نزع الى فريقه ، وجعل تلك الايالة قرى طريقه . وصحب ركابه الى قرارة ملكه ، ومحط فلكه . فقربه وادناه ، وشيد له العز وبناه . ولم تنزل سماؤه تجوده ، وروضه يروضه جوده . واصطنعه خلفه من بعده ، الى أن دعاه الاجل لوعده . ففقدته بكائنة طريف (94) ، جبر الله عثارها ، وعجل آثارها .

(90) مثل عربى يضرب عند اسناد الاخبار الى مصادرها الوثيقة .

(91) رجل ذمر : بفتح فسكون أى : شجاع داهية .

(92) رجل ازم . بفتح فسكون أى : يبرز في الازمات .

(93) هو السلطان أبو الوليد اسماعيل النصرى ، خامس ملوك بنى الاحمر . تولى السلطة في شوال من عام 713 هـ (أبريل 1313 م) ، وقتل بيد ابن عمه محمد بن اسماعيل صاحب الجزيرة لاسباب شخصية في أواخر رجب 725 هـ (يونيه 1325 م) ، ويذكر المؤرخون عن هذا السلطان انه شدد النكير على الخارجين عن تقاليد الاسلام ، فمن ذلك تحريمه على النساء الجلوس على الموائد مع الرجال في الحفلات العامة ، ومنعه للمسكرات البتة ، الى غير ذلك .

(94) تعرف هذه المعركة في الرواية الاسلامية بـ « موقعة طريف » وسماها ابن الخطيب في مواطن أخرى بـ « الوقعة العظمى » ، وتعرف في الرواية الاسبانية بـ « معركة سالادو » ، وقد حدثت بين الاسبان والمتطوعين من نصارى أوروبا من جهة ، وبين المغاربة والاندلسيين من جهة أخرى حيث رابط الفريقان عند نهر سالادو قرب طريف ، وتمخض الاشتباك المحتوم عن فوز الاسبان بقيادة ملكهم الفونسو السادس ، وهزم المغاربة ، فعاد السلطان أبو الحسن المريني الى المغرب ، كما قفل السلطان يوسف الاول أبو الحجاج راجعا الى عاصمة ملكه غرناطة ، ومحض الله المسلمين .

حدث خطيب الجامع الاعظم ، وهو ما هو من وفور العقل ، وصحة النقل ، قال « مررت بأبيك بعدما تمت الكسرة ، وخذلت تلك الاسرة ، وقد كفا بأخيك الطرف ، وعرض عليه الحمام الصرف . والشيخ لم تنزل قدمه ، ولا راعه عدمه . ولما يئس من الخلاص وطلابه ، صرفنى وقال : أنا أولى به . فقضى سعيدا شهيدا ، لم يستقره المقول ولم يثنه ، ولا ارتضى عار الفرار عن ابنه » .
وكان له في الادب فريضة ، وفي النادرة العذبة منادح عريضة ، مع انتحاله (102 م) واشتغاله بحاله .

ومن ذلك في وصف :

72 - أبى بكر البلوى - من أهل المرية

بحر لرسوم المكارم ، ذو هزة للفضائل كهزة الصارم . كان - رحمه الله - ببلده في الاحسان ، بمنزلة العين من جسد الانسان ، والنطق من اللسان ، والبشاشة من الصور الحسان . ان ضل السماح فبيته مأواه ، أوصل الضيف فهو أبو مئواه . الى نفس آخذة بأقاصى الكمال ، وشمائل الطف من أنفاس الصبا والشمال ، وأدب أشهى الى القلوب من الآمال .
قدم على الحضرة لاول الدولة ، رداء حق الطاعة ، والانتظام في الجماعة .

وعلى الاثر سقطت كل من طريف والجزيرة الخضراء وقلعة بنى سعيد في قبضة النصارى ، وكاد الاسبان يستولون على جبل طارق . وتجدر الاشارة الى ان هذه المعركة كانت فاصلة في تاريخ الجهاد المرينى بالاندلس ، بحيث لم يتسن للمغاربة الجواز الى هذه البلاد في صورة كتائب نظامية أو الاشتباك فى معارك بعدئذ مع النصارى ، وكانت هذه الموقعة في جمادى الاولى عام 741 هـ (اكتوبر 1340 م) .

راجع : يوسف الاول ابن الاحمر سلطان غرناطة - للمحقق ص 134 - 140
نشر الدار القومية للتوزيع 1969 بالقاهرة .

ومن ذلك في وصف :

73 - أبى عبد الله السراج

طبيب ماهر ، وروض علم تفتحت فيه للفنون أزاهر . درج من الشظف الى السعة وتحلى بحلية العلم فرفعه . فبلغ الغاية التي لطف محلها ، وفاء عليه ظلها ، وتغلبت عليه الايام فاعتورته صروفها (95) وتكدر عنده معروفها ، (102 . ب) لما ذكرته في كتاب طرفة العصر ، في اخبار دول بنى نصر . ثم تداركت صلاح حاله ، ومتعته بطيب القرار بعد ارتحاله . فاستقرت داره ، واستقام - على قطب العناية - مداره .

وكان - رحمه الله - كثير الدعابة ، وما شأنه ذلك ولا عابه . وله نظم ينخرط في سلك الانطباع ، ويخبر بطول الباع .

ومن ذلك في وصف :

74 - أبى زكريا يحيى بن هذيل التجيبى (96)

درة بين الناس مغفلة ، وخزانة على كل فائدة مقفلة ، وهدية من الدهر الضنين لبنيه محتفلة . أبرع من رتع التعاليم وعلمها ، وركض في الالواح قلمها ، واتقن من صور الهيئة ومثلها ، وأسس قواعد البراهين بين الناس وأثلها (97) . وأعرف من زاول شكاية ، ودفع عن جسد نكاية . الى غير ذلك من المشاركة في العلوم ، والوصول من المجهول الى

(95) اعتورته صروفها : تداولت عليه أحداثها .

(96) هو الشيخ أبو زكرياء يحيى بن هذيل ، من أشهر العلماء المشتغلين بالطب والفلسفة والعلوم والرياضيات ، ويعرف لذلك بحكيم غرناطة وفيلسوفها ، وهو أحد شيوخ لسان الدين ابن الخطيب . توفي - رحمه الله - عام 753 هـ (1355 م) .

(97) أثلها : بفتح الهمزة وتشديد الثاء مع الفتح بمعنى : أصلها .

المعلوم ، والمحاضرة المستقرة للحلوم (98) ، والدعابة التي ما خالغ العذار فيها بالمنوم . فما شئت من نفس عذبة الشيم ، وأخلاق كالزهر من بعد الديم (99) ومحاضرة تتحف المجالس (103 . م) والمحاضر ومذاكرة يروق النواظر زهرها الناضر .

وله أدب ذهب في الاجادة كل مذهب ، وارتنى من البلاغة بكل رداء مذهب . ومعان تراودها الخواطر فلا تصد ، وتحببها النفوس فلا ترد . والادب نقطة من حوضه ، وزهرة من أزهار روضه .

وسيمر له — في هذا الديوان — ما يبهر العقول ، ويحاسن بروائه ورائق بهائه الفرند المصقول .

75 — أبى عمرو بن عباد

من أهل رندة (100)

صوفي محقق ، ومريد عن صبوح المحبة مرقق . كان ببلده — رحمه الله — عينا من أعيانها ، وقريع بيت من بيون احسانها . شام للغرب بارقا ، وأصبح لدنياه مفارقا ، فنزح عن بلاده ، وخرج عن طريفه وتلاده ، وشمر لمقارعة الهوى وجلاده . وخاض بحار تلك الاحوال ، حتى صار معدودا في أهل الاحوال . وظهرت عليه سمات الحضرة ، وسطعت له أنوار الكرامة الالهية . ولم يزل يعبر عن وجدده ، ويكنى بحاجره ونجدده ، حتى حفظت (103 . ب) أقواله ، واشتهرت أحواله .

(98) الحلوم بضم الحاء : العقول .

(99) الديم . بتشديد الدال مع الكسر بمعنى : قطرات المطر .

(100) ما زالت المدينة تحمل نفس الاسم بالاسبانية Ronda تقع غرب مالقة ، وقد كانت من أهم القواعد الاندلسية .

ومن ذلك في وصف :

76 - أبى الوليد بن هانى - من أهل غرناطة

شاعر ينحت، من طود ، وماطر صاب من الكلام بجود (101) .
عدل عن اللفظ القريب الحوشى الغريب . فاذا أجهد طبعه ، ووصف حبه
وربعه ، وكيف ظعن القطان ، وتغيرت الاوطان - قلت : حجازيا فصيحاً ،
أو تميميا ينشق للبيان ريحاً ، ونجديا شكاً بثاً وتبريحاً .

نشأ ببلده غرناطة مطلع نور حسبه الباهر ، وروضة بيته الانيق
الازاهر . فشأى حلبة الطلب ، وفاز بالغلب ، واجتهد وعكف ، واستمطر
وابل العلم لما وكف ، حتى جلى من المشكلات كل حالك ، واستظهر
موطأ مالك . ثم رام السفارة بعزمه ، وخاض القفار بجرفه وحزمه .
واستقر بعد اعتساف المجاهل ، ومزاحمة المناهل ، وخوض العرار ،
والبشام بحماة الشام (102) واتخذها داراً ، وارتناضها لفضله مداراً .

(101) جود . بفتح فسكون ، مصدره جاد ، بمعنى : النيل .

(102) حماة : مدينة لها شهرتها واصلتها في سوريا ، تقع على نهر العاصى ،
أحدى المراكز التجارية، تتبعها كمحافظة من المحافظات سلمية ومصيف، ويبلغ
تعداد سكانها حوالى 420.000 نسمة ، ويرجع تاريخها الى القرن الالف
الخامس قبل الميلاد تقريبا ، احتلها الميتاليون عام 1.550 ق.م . ، ثم الآراميون
نحو 1.100 ، ثم دمرها الحيثيون ثم الآشوريون عام 720 ق.م . ، ولكن الحياة
عادت اليها في عصر السلوقيين ، الذين دعوها « ايقانيا » ، حتى احتلها الرومان
عام 64 ق.م . ، وتلاهم البيزنطيون ، وأخيرا دخلت التاريخ العربى عندما
فتحها القائد أبو عبيدة عام 639 م .
هذا ، وتشتهر حماة ينواعيرها ، ومن آثارها المعروفة الجامع الكبير ، وجامع
أبى الفداء .

راجع : د. مصطفى زياده وآخرين في « تاريخ العالم العربى وحضارته »
ص 238 وما بعدها . . .

ومن ذلك في وصف :

77 — أبى عبد الله الكفيف — من أهل مالقة

ضريـر زاد نور بصره نور قلبه فاجتمعا ، وكفيف سارت الامثال
بذكره فصدق مرأى منه مستمعا . صادق اللهجة ، سلك سبيل الفضل
وانتهج نهجه . ادهن من رواد المشكلات وافترعها ، وصادم الغوامض
فصرعها . وله في علم اللسان قدم راسخة ، وفي أحكام المعانى آية
ناسخة . وكان معرى عصره ووارث علمه الذى يعجز عن حصره . وله
في العلوم العقلية ذوق ، والى تلك الفنون شوق ، نسبته الالسن ،
واستقبح منه ما يحسن . ونظمه دون قدره ، ومعانيه تكثر عن نفثات
صدره .

ومن ذلك في وصف :

78 — الاديب الحاج الرحال ابى اسحاق الساحلى

جواب الآفاق ، ومحالف الرفاق ، ومنفق سعر الشعر كل النفاق .
رفع ببلده راية للادب لا تحجم وأصبح نسيج (104 . ب) وحده فيما
يسدى ويلجم . فان نسب جرى قلم ما كتب ، وان مدح وقدح من
أنوار فتنته ما قدح — حرك الجامد ، ونظم الجمان للمحامد . وان وصف
أورثا ، غبر في وجوه السوابق وحشا .

واما أنف لكساد سوقه وضياح حنوقه — أخذ بالعزم ، وأدخل
على تعلاته عامل الجزم . ولم يزل يسقط على الدول سقوط الغيث ،
ويحتل كناس الطبى وغاب الليث . ويركض النجائب ، ويتتبع العجائب ،
حتى استضاف بمصر الكرام ، وشاهد البرابى والاهرام ، ورمى

بعزمته الشام ، فاحتل ثغوره المحوطة ، ودخل دمشق وتقياً الغوطة (103)
ثم عاجلها بالفراق ، وتوجه الى العراق ، فحيا بالسلام مدينة السلام (104)
وأورد بالرافدين (105) رواحله ، ورأى اليمن وسواحله .

ثم عدل الى الحقيقة عن المجاز ، وتوجه الى مثابة الحجاز ،
فاستلم الركن والحجر ، وزار الترب الكريم لما صدر . وتعرف
في مجتمع الوفود بملك السود ، فغمره بارفاده ، واستصحبه الى بلاده .
فاستقر بأول اقاليم الارض ، واقصى ما يعمر من هذا العرض . فحل
بها (105 . أ) محل الخمر في القار ، والنور في سواد الابصار . وتقيد
بالاحسان ، وان كان غريب الوجه واليد واللسان .

وقد أثبت من شعره ما يشهد بجلالة آدابه ، وتعلق الاحسان
بأهدابه .

ومن ذلك في وصف :

79 — القائد أبي جعفر أحمد بن خير

قائد مليح الشبية ، ممتزج المباشطة بالهية . يجمع بين الدعابة
والوقار ، ويدير من الفكاهة كؤوسا تترى بكريم العقار . وله أصالة قامت
على العلم أركانها . واشتهر بحمص — أعادها الله — مكانها ، ووسائل
الى السلف الكريم عظم ذمامها ، وارتنع أخلافها بين القيادة وأعمالها .

(103) الغوطة : هي مجموعة البساتين المحيطة بدمشق ، وترتوى من نهر بردى ،
تشتهر بوفرة وجودة مثمثها ، وكانت هذه الجنات قديما سكنا للغساسنة .

(104) مدينة السلام : بغداد .

(105) الرافدان : دجلة والفرات .

تناول خطة المدينة فأجراها ، وراش نبل الاحكام وبراها ، وبشر
بشار أولى الفساد وفراها ، وفرق بين الجفون وكراها . فكم عاشق
انتجز للوصول ميعادا ، وارثق للسعد اسعادا . وظفر بمثير غرامه ،
وموقد ضرامه . في مجلس تجلت فيه عروس الكناس ، على غرس الورد
والآس وعند سجود الابريق ، ومزج المدامة بالريق — وثب ابن خير
هذا وثوب الليث ، وسقط عليه سقوط العيث ، لا سقوط الغيث ، فراع
غزال ذلك الكناس . حتى ذعرت القلوب لسطوته ، وتشوفت الآذان الى
احساس خطوته . كل ذلك بعدل ميزان قائم ، وجزالة لا يثنيها في الحق
لائم . وبسالة تشهد المواقع بمضائها ، وتثنى عليها السيوف عند
انتضائها .

واصطنعه المقام اليوسفى (106) — اعلاه الله وارتضاه — للامانة
العظمى ، وقلده حفظ أبواب معقله الاسمى . فأعطى القوس باريا ، وقلد
الخطة حساما فاريا . وهو لطيف المحل لديه ، حظى بين يديه ،
يستظرف نادرته العذبة ، ويبدى له القبول والمحبة .

وله أدب عذب الجانب ، سهل المذائب ، لا يزال ينفث بضربه ،
ويستقر عند نظمه عوائد طربه .

ومن ذلك في وصف :

80 — أبى جعفر بن عفرون — من الجند

(106 : أ) نير ما طلع حتى أفل ، وماجد في حل الفضل رفل .
الطف الناس في معاشرة الاكفاء ، وثانى . . . ابن عادييا في الوفاء

106) المقام اليوسفى : نسبة الى يوسف الاول أبو الحجاج ابن الاحمر سلطان غرناطة
وسابع ملوك بنى نصر (733 — 755 هـ = 1333 — 1354 م) .

الى حلم لا يضيق له صدر ، وعهد لا يتطرق لحماه نكث ولا غدر . ونفس
عظيمة النفاسة ، واخلاق مولعة بذكر الحماسة .

توجه مع الحصاة الى حراسة ثغر بيرة (107) وقد اشتعلت نيرانه ،
وكلب جيرانه وكانت من المسلمين جولة في بعض المواقع ، ميز الله بها
الخاص من الزائف . ولم يرض حاجبنا — رحمه الله — على الفرار أمام
الكفار ، ولم يزل يقدم اقدام الغضنفر ، ويقيم هامته مقام المغفر (108) .
فقضى شهيدا مقداما ، وشرب للحيام كأسا كانت لها السعادة مدا .

ولم أظفر من كلامه الا بنزر ، ولا أحطت من مده الا على جزر .

ومن ذلك في وصف :

81 — أبى جعفر الروية — من أهل بليش

ناظم الفقر الشاردة ، ومنتضى المعانى الصادرة والواردة ، وصاحب

(107) بيرة : تدعى الآن في الاسبانية Vera تقع شمال شرق غرناطة ،
وهي بلدة مرتفعة تشرف على ساحل البحر المتوسط ، مما اكسبها أهمية بحرية
حربية .

وصفها ابن الخطيب في « معيار الاختيار » مشيرا الى مجاورتها للنصارى ،
وما كان من تعرضها لمناوشاتهم ، وانتهاك حرمتها بين حين وآخر ، حين يقول
« . . . الا أنها قليلة المطر مقيمة على الخطر ، مثلومة الاعراض والاسوار ،
مهطعة لداعى البوار » هذا بالاضافة الى فتنتها بالداخل «قليلة الوجوه والصدور ،
كبيرة المشاجرة والشرور ، برها أنذر بن برها في المعتمر والبور ، وزهد أهلها
في الصلاة شائع في الجمهور » .

(108) المغفر والمغفرة : جمع مغفر ، عبارة عن زرد يلبسه المحارب تحت القلنسوة
لاتقاء الضربات .

قريحة ملتبهة الوقود ، وبديهة منتظمة العقود ، وببيت ينمى الى مجد ،
وأصالة أطيّب من عرار نجد (109) .

نشأ ببلده (106 . ب) بليش قرارة ميلاده ، مقتصرا على انتجاع
تلاده . صان بذلك وجهه عن اراقة مائه ، وهتك حجاب حيائه .

ولم أظفر من شعره — على استرساله — الا بقوله يهنى السلطان
— أيده الله — بأحد أولاده .

ومن ذلك في وصف :

82 — أبى عبد الله العبدونى الملقى

أديب نار ذكائه يتوقد ، وعارض لا يعترض كلامه ولا ينفد . وأما
الهزل فهو طريقته المثلى ، التى ركض فى ميدانها وجلّى ، وطلع فى أفقها
وتجلّى . فأصبح علم أعلامها ، وعابر أحلامها . ان أخذ بها فى وصف
الكأس ، وذكر الورد والآس ، والم بالربيع وفصله ، والحبيب ووصله
والروض وطيبه ، والغمام وتقطيبه — شق الجيوب طربا ، وعل النفوس
أريا وضربا (110) . وان اشفق لاعتلال العشية ، فى فرش الربيع
الموشية ، ثم تعداها الى وصف الصبوح ، وأجهز على الزق
المجروح ، وأشار الى نغمات الورق ، وقد اشتعلت فى عنبر الليل نار
البرق ، وطلعت بنود الصباح (107 . أ) فى شرفات الشرق — سلب

(109) العرار : واحدة عرارة ، وهو بهار ناعم أصفر طيب الرائحة . وعرار نجد الذى
يلمح اليه المؤلف هو الذى عناه الشاعر قديما بقوله :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

(110) الارى : بفتح الهمزة وسكون الراء مصدر أرى ، وأرى النحل ، عمل العسل
فالأرى (بفتح الهمزة وسكون الراء هو العسل) .

الحليم وقاره ، وذكر الخليج كاسه وعقاره . وحرك الاشواق بعد سكونها ، وأخرجها من وكونها ، بلسان يتزاحم على مورده الخيال ، ويتدفق من حافاته الادب السيل . وبيان يقيم أود المعانى ، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المباني ، ويكسو حل الاحسان جسوم المثالث والمثاني . الى نادرة لمثلها يثار ، ومحاضرة يجنى بها الشهد ويثار .

وقد أثبت من شعره — وان كان لا يتعاطاه الا قليلا ، ولا يجاوزه الا تعليلا — أبياتا لا تخلو من مسحة جمال على صفاتها ، وهبة طيب تتم في نفحاتها .

ومن ذلك في وصف :

83 — أبى القاسم الشريف الحسنى (111)

ما شئت من قدرة وايد ، ليس من عمرو ولا زيد . أكرم من عمر للبلاغة مجالا ، وأطوع من دعا أبيات المعانى فجاءت عجالا ، وأبرع من أدار كؤوس البيان المعتق ، ولعب بأطراف الكلام المشقق ، روية وارتجالا ، وأجل من أشار اليه الشاعر بقوله :

« وخير الشعر أكرمه رجالا » .

قدم على (107 . ب) الحضرة هذا القاضى الشريف ، وقذف بدرته النفيسة لها الريف . روض أدب وظرف ، لما شئت من حسن

(111) هو الشيخ محمد بن محمد بن عبد الله الحسنى السبتي . ولد بسبته في 6 ربيع الاول 697 هـ (22 ديسمبر 1297 م) حيث نشأ بها ، وقرأ القرآن ، وتملا من العلوم وأخذ بحظ وافر من المنظوم والمنثور ، ثم انتقل الى غرناطة ، حيث التقى بشيخ الكتاب ابن الجياب ، الذى ضمه الى الكتابة الديوانية ، وهو أحد

وعرف . يدير من الحاضرة جريالا ، ويسحب للبدايع أذبالا . ذا نفس كريمة ، وأخلاق كالروض غب انسكاب ديمة . وقعد بمسجدها فدرس وحلق ، وسطع نوره فى أفقها وتآلق . واستأثرت به الكتابة السلطانية لأول وروده ، وسبغت عليه من الاحسان سوابغ بروده . وترشح بخلاله المرتضاه ، الى قضاء القضاة . وهو — الآن — قاضى الجماعة وامامها (123) ، وقيم الشريعة الذى فى يديه زمامها ، بلغت به تلك

شيوخ ابن الخطيب المعدودين فى مفاخر صفحاته العلمية .
تقدم للقضاء فى أنحاء شتى من الاندلس ، ثم اختير قاضيا للجماعة بفرناطة ، وخطيبا للمسجد الاعظم فترة من الوقت ، ثم عزل ، ثم أعيد مرة اخرى ، كما جدد السلطان الفنى بالله الولاية له بعد وفاة ابيه السلطان أبى الحجاج . وللمترجم له مؤلفات ما زال معظمها مخطوطا لم ير النور بعد ، مثل « الجواهر الثمينة » فى صفات القاضى العادل » وكذا مؤلفه الضخم « رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة » شرح بها مقصورة اديب المغرب الامام أبى الحسن محمد القرطاجنى التى مدح بها المستنصر بالله أبى عبد الله محمد الحفصى ، وذلك فى مجلدين كبيرين .
توفى هذا الفقيه الكبير بفرناطة فى 21 شعبان 760 هـ (18 يوليو 1359 م) عن 63 عاما .

راجع : يوسف الاول ابن الاحمر للمحقق ص 78 — 79 (لجنة البيان العربى بالقاهرة 1969 م) .

(112) جرت عادة الاندلسيين أن يختاروا من بين قضاة المدن « قاضيا للجماعة » وهو المعروف بـ « قاضى العاصمة » أو « قاضى الحضرة الملكية » ويعد منصبه من أرفع المناصب الدينية ، ولهذا يراعى فى اختيار صاحبه السمعة الطيبة ، والكفاءة والتبريز فى ميدان القضاء ، الى جانب التأليف فى هذا ، والشهرة فى الفتاوى ، فلم يكن ليشغل هذا المنصب سوى العلماء المشهورين ، أو الفقهاء الكبار ، مثل الشريف السبتي ، وأبى البركات بن الحاج البلفيقى .
ويقوم قاضى القضاء عادة بالخطابة فى المسجد الاعظم بالعاصمة ، ويتم هذا الاختيار السامى بمقتضى ظهير ملكى خاص ، حيث تقام حفلة تنصيبه بالمسجد الاعظم أو مسجد الحمراء ، وقد أورد ابن الخطيب فى كل من « الاحاطة واللمحة البدرية » أسماء من تولوا القضاء بالحضرة الملكية ، وخاصة من عاصرهم ، مرتبا ذكرهم غالبا حسب تاريخ اعتلائهم هذا المنصب .
راجع : المصدر السابق ، ص 74 .

المثابة آمالها ، واستأنفت بعد الكبرة جمالها ، وقالت له هيت لك (113)
فلم تكن تصلح الا له ، ولم يكن يصلح الا لها . وألقت له الخطابة قيادها ،
فأنسى قسها ، ووسم بعد الاغفال بسيمة الاحتفال جمعها واعيادها .
وأما شعره فينازع الرضى نسيبه ، فخره وتشبيبه .

(108 : 1) ومن ذلك في وصف :

84 - الشريف أبي عبد الله بن الحسن الحسيني

كريم الانتماء ، مستظل بأغصان الشجرة الهاشمية الممتدة الافياء ،
التي أصلها ثابت وفرعها في السماء (114) . من رجل سليم الضمير ،
ذو نفس أصفى من الماء النмир وبشهادة تثني عليها الرجال ، اذا ضاق
المجال ، وتقوضت الاجال ، وله في الشعر طبع يشهد بعروبة أصوله ،
ومضاء نصوله .

وقد أثبت من شعره ما يتضح في البلاغة سبيله ، ويشهد
بعشق الجواد صهيله .

ومن ذلك في وصف :

85 - أبي القاسم بن الرئيس أبي زكرياء العزفي (115)

فرع تأود من الرياسة في دوحة ، وتردد ما بين غدوة في المجد

(113) اقتباسا من قوله تعالى : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت
الابواب ، وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله ، انه ربي احسن مئواي ،
انه لا يفلح الظالمون » . سورة يوسف ، آية 23 .

(114) اقتباسا من قوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ،
أصلها ثابت وفرعها في السماء » سورة ابراهيم ، آية : 24 .

(115) نسبة الى بنى العزفي المتأمرين بسببة في القرن السابع الهجري (الثالث
عشر الميلادي) .

وروحه . نشأ والرياسة العزفية تعلمه وتنهله (116) ، والدهر يبسر أمله
 الاقصى ويسهله . حتى اتسقت أسباب سعده ، وانتهت اليه رياسة
 سلفه من بعده ، (108 : ب) فألقت اليه رحالها وحطت ، ومتعته بقربها
 بعدما شطحت وشطت . ثم كالح له الدهر بعدما تبسم ، وعاد زعزعا
 نسيمه الذي يتتسم . وعاق هلاله عن تمه ، ما كان من تغلب ابن عمه .
 واستقر بهذه البلاد نازح الدار ، بحكم الاقدار ، وان كان نبيه المكانة
 والمقدار . وجرت عليه جراية واسعة ، ورعاية متتابعة .
 وله أدب كالروض باكرته الغمام ، والزهر تفتحت منه الكمائم .
 ورفع منه راية خافقة ، وأقام له سوقا نافقة . وعلى تدفق أنهاره ،
 وكثرة نظمه واشتهاره — فلم اظفر منه الا باليسير التافه ، بعد
 انصرافه .

ومن ذلك في وصف :

86 — أبى عبد الله بن الشيخ الحاجب بتونس أبى الحسن بن عمر

غرس نعمة هامية وربى رتبة سامية . تقلد أبوه حجابة الخلافة
 بتونس — وهى من سمو المكان ، ورفعته الشأن — فصرف اليه الوجوه ،
 ولم يبق الا من يخافه أو يرجوه . (109 : 1) وبلغ من ابنه هذا — مدة ذلك
 الشرف — الغاية فى الترف . ثم قلب لهم الدهر ظهر المجن ، واشتد بهم
 الخمار عند فراغ الدن . وبدلتهم الايام بزتها ، واسترجعت عزتها .
 ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوط مبيرة ، وشدة فى البحر كبيرة .
 فامترج بسكانه وقطانه ، ونال من اللذات ما لم ينله فى أوطانه . واكتسب

(116) العل : (وفتح العين) شرب الخمر المرة تلو المرة . والنهل : (بتشديد
 النون مع الفتح) أول الشرب .

الشمائل العذاب ، وكان كابن الجهم بعث الى الرصافة (117) ليرق
فــــذاب .

ثم حوم على وطنه تحويم الطائر ، وألم بهذه البلاد المام الخيال
الزائر . فاغتنمت صفقة وده لحين وروده ، وخطبت موالاته على
انقباضه وشروده .

فحططت منه على درة تقتنى ، حديقة طيبة الجنا . فيالله من
ساعات أنس قطعناها ، ولذات اطاعتنا واطعناها ! ! ما كانت الا كأحلام
نائم ، أو افاقة هائم ! رحلن وما ابقين الا الاسى ، والتعل بعسى . .

والفقيه أبو عبد الله هذا ذو فهم جديد ، وفضل سديد ، وباع من
الادب مديد . ولو تفرغ للتحصيل — بمقتضى (109 : ب) طبعه الاصيل —
لعلت قداحه ، وكان بحرا لا يساجل ضحضاحه .

(117) مدينة في بادية الشام ، تبعد بنحو أربعين كيلومترا من نهر الفرات ، لها
أصالتها وشهرتها ، حيث وردت في الكتب والآثار القديمة ، وقد سكنها
الفساسنة قبل الفتح الاسلامي ، كما اقام بها الخليفة الاموي هشام بن عبد
الملك (724 — 743 هـ) .

أما ابن الجهم هذا فهو على بن السلمي القرشي ، كان شاعرا مجيدا ، سخر
شطرا كبيرا من شعره في هجاء آل أبي طالب والاغراء بهم ، فسخط عليه
الخليفة المتوكل لذلك ولكثرة سعايته بين القوم ، فنفاه الى خراسان ، وهناك
قبض عليه طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وصلبه يوما كاملا مجردا
ثم حبسه ، فقال شعرا فيما حدث له من صلب وحبس ، توفي مقتولا عام 863 م
بيد أعراب من بني كلب ، وكان في طريقه من حلب الى العراق . هذا وينسب
اليه — بهذه المناسبة — قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ومن ذلك في وصف :

87 - أبي عبد الله ابن الحاجب بتونس

أبي عبد الله بن العشاب

جواد لا يتعاطى طلبة ، ولا يماثل بالفجر فلقة . كانت لابييه - رحمه الله - من الدول التونسية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة في العقد والحل . ولم تزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل الى الحجابة . ونشأ ابنه هذا مفدى بالانفس والعيون ، مقضى الديون ، حالا من الضمائر محل الظنون . والدهر ذو الوان ، ومارق حرب أوان ، والايام كرات تتلقف ، وأحوال لا تتوقف . فألوى بهم الدهر وانحى ، وولد غمام جوه بعقب ما له صحا . وشملهم الاعتقال ، وتعاورتهم النوب الثقال ، واستقرت بآخره بالمشرق ركابه ، وحطت به اقتابه . فحج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعمر . وعكف على كتاب الله فجود الحروف ، (110 : أ) وقرأ الخلف المعروف . وقيد واسند ، وتكرر الى دور الحديث وتردد .

وقدم على هذه البلاد قدوم النسيم البليل ، على كبد العليل . ولما استقر بها قراره ، واشتمل بجفنها غرار - بادرت الى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته . فاجلتيت السرور شخصا ، وطالعت ديوان الوفا مستقصى ، وعلمت معنى الكلام تأويلا ونصا . فحيا الله زمن اقترابه ، فلقد جاد وأجاد ، وأفاد ما لا أخاف عليه النفاذ .

وأما شعره فليس بحائد عن الاحسان ، ولا غفل عن غرر البيان .

ومن ذلك في وصف :

88 — صاحب القلم الاعلى بالمغرب أبى محمد عبد المهيمن الحضرمى (118)

الفذ الذى يعدل بالالوف ، والبطل المعلم عند مناجزة الصفوف ،
والمتقدم بذاته وأداته تقدم الاسماء على الحروف .
نشأ بسبته — حرسها الله — بين علم يفیده ، ومحل يشیده .
وطهارة يسحب مطارفها ، ورياسة يتفيا وارفها . وأبوه — رحمه
الله — (110 : ب) قطب مدارها ، ومقام حجبها واعتمارها . فسلك
الحزون من المعارف والسهول ، وبذ — على حداثة سنه — الكهول .
ولما تحلى من الفوائد العلمية بما تحلى ، وبرز في ميدان المعارف وجلى ،
واشتهر الصباح اذا تجلى — تنافرت اليه همم الملوك الاخائر واستأثرت
به الدول — على عادتها — في الاستئثار بالذخائر . فاستقلت بسياستها

(118) هو الاستاذ الرئيس ابو محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن —
محمد بن على بن محمد الحضرمى النسب ، السبتي النشأة ، يتصل نسبه
بالصحابى العلاء بن الحضرمى ، وقد وفدت الاسرة من اليمن الى الاندلس ،
ثم نزع والد المترجم له الى سبته ، حيث شغل منصب القضاء بها على عهد
بنى العزفي امرائها . وفيها ولد صاحبنا عام 676 هـ ، ولما شب عن الطوق
وحفظ القرآن الكريم قرأ على شيوخ المغرب البارزين ، أمثال رشيد والغافقى
وابن الغماز وغيرهم ، حتى ابلغت مشيخته نحو الالف . وتولى منصب الكتابة
بالمغرب للسلطان ابي على بن ابي سعيد المريني عام 712 هـ . وصفه الامير
ابو الوليد ابن الاحمر بقوله : « بيته بيت علم سحب من التحصيل ذبلا ،
وتضوعت من عرف عرفانه نواسم التفنن نهارا وليلا وطوقته المفاخر طوقا ،
واذاقه الفهم من حلاوة العلوم ذوقا » .

توفى — رحمه الله — بتونس بمرض الطاعون الجارف في 12 شوال عام 749 هـ
راجع : ابي الوليد ابن الاحمر في : مستودع العلامة ، ومستبدع العلامة . . تحقيق
محمد التركى التونسى ، ص 50 (ط معهد مولاى الحسن للبحوث بالمغرب
1964 م) . وكذلك : الاستاذ عبد الله كنون في « ذكريات مشاهير رجال المغرب
— عبد المهيمن الحضرمى » نشر دار الكتاب اللبنانى (بيروت ط 1 مايو
1960 م) .

ذراعه ، وأخذم السيوف والذوابل يراعه (119) . وهو — الآن —
 عينها التي بها تبصر ، ولسانها الذي تسهب به وتختصر .
 وقد تقدمت له — الى هذه البلاد — الوفادة ، وحلت به لديه
 الافادة . وكتب عن بعض ملوكها وانتظم في سموطها الرفيعة وسلوكها .
 وله في الادب الراية الخافقة ، والعقود المتناسقة . فما شئت من
 لفظ طاب عرفه ، ومعنى سحر الالباب ظرفه . وقد أثبت من كلامه في
 « ريحانة الكتاب » ما تتمناه النحور بدل قلائدها ، وتجعله الحور
 تمائم على ولائدها .
 ومن ذلك في وصف :

89 — (111 : أ) الخطيب أبي عبد الله بن رشيد (120)

بحر معارف لا يسبر غوره ، وروض فنون تنضوع مسراه
 واينع نوره ، وفريد زمانه الذي لا يأتي بمثله دوره .

(119) يقصد بالعبارة ، ان قلمه جعل السيوف والذوابل تقر بالذل وتسكن ، كناية عن
 رفعة الشأن .

(120) هو الشيخ أبو عبد الله بن رشيد الفهرى السبتي ، من كبار الائمة ، ومشاهير
 الخطباء . كانت ولادته بسبته عام 657 هـ ، وتوفي بفاس في شهر المحرم من
 عام 721 هـ ، وبها دفن بمطرح الحلة من القباب . وترجع شهرة المترجم له
 الى انه كان واحدا من المحدثين ذوى الاسناد وممن عرفوا بالتضلع في علوم النحو
 والعروض والادب ، كما كان مؤرخا عالما في القراءات ، رحالة .
 وفد على غرناطة العاصمة ، فتولى الخطابة بمسجدها الاعظم حوالى عام 692 هـ
 وأقام حينئذ فترة من الزمن ، حيث ظفر بمكانة سامية تليق بمقامه ، وقصد
 المشرق مرتحلا مرتين ، وخلال تجواله التقى بالعلماء وأخذ عنهم ، ولما
 عاد من رحلته الاخيرة وضع كتابا حول هذه الاسفار ، وأخيرا قفل راجعا الى
 فاس ، وأقام بها حتى توفي رحمه الله .

راجع : ابن الخطيب في « نفاضة الجراب » تحقيق د. العبادي ج 2 ص 307 —
 352 (القاهرة 1968) . والاستاذ عبد الله كنون في « النبوغ المغربى »
 ص 206 — 207 (بيروت 1961) .

نشأ ببلاده سبته — حرسها الله — أصون من الدر في صدفه ،
وأطهر من الماء في نطفه . لا يسرح — في غير المطالعة — طرفا ، ولا
يتنشق — لغير المعارف — عرفا . حتى سما مقداره ، وكمل في وطنه
إبداره ، فأشارت اليه العيون . وطمح الى الرحلة والزمان برحاله غنى
وبكل قطر روض جنى ، وعالم سنى . فرحل عن بلده رحيل الغمام
بعدما أمطر ، واقتشع اقتشاع الربيع عقب ما أزهر . ولم يزل يطلع
بكل ثنية ، ويعشو الى نار كل فائدة سنية . وكلما مر بفائدة في طريقه
صرف اليها أعنة فريقه . حتى عرس بالثوى الجليل ، واستظل بالجدار
الذي رفعت قواعده أكف الخليل (121) ونقع من ماء زمزم معتمد
العليل (122) . وسنح له باليمن طيره ، وأحسب رحلته بالحرم الامين
أبو اليمن وغيره . ثم صرف عنان أمله وسوله (112 : ب) الى زيارة
قبر نبي الله ورسوله ، فصلى بين روضته الطاهرة ومحرابه ، وتمتع
ما شاء من لثم جداره وانتشاق ترابه . ودخل الشام في منصرفه ،
مستكثرا من عيون العلم وطرفه ، وآب الى جوه وقد دون رحلته
العظيمة الامتاع ، وأتى منها ما يقيد النواظر والاسماع وسماها بـ
« ملء العيبة » فيما قيد بطول الغيبة الى مكة وطيبة « (123) اسم
وافق مسماه ، وسهم أصاب مرماه .

ولحق بالاندلس ، فتهللت لقدمه أسرته — واحتفلت لقراه
دريته . وأخذ عنه صدورهم واستمدت من تمه بدورها . وفعم

(121) يعنى به « البيت الحرام » وتعبيره اشارة الى قوله تعالى : « واذ يرفع ابراهيم
القواعد من البيت واسماعيل . . الآية »

(122) معتمد العليل : ما يفتقر اليه العليل .

(123) الاستاذ عبد الله كنون اسم الرحلة هكذا : « ملء العيبة » فيما جمع
بطول الغيبة ، في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة « مشيرا الى أن المؤلف
خصص فيها قدرا عظيما لذكر مسائل الحديث واسانيده مما يشهد له — في
هذا الباب — بطول الباع ، وقلة النظر ، مع رسوخ القدم في التمسك بالسنة
والعمل بمقتضاها .

راجع « النبوغ المغربى » ص : 193 .

مجالسها العلمية طيبا ، وصعد منبر الحضرة خطيبا . وله من مدبر الدولة النصرية ذى الوزارتين ابن الحكيم (124) محلة ، وفاء عليه ظله ، لمودة بينهما عقدت ، ورسائل — قبل الرياسة — نقدت ، غانه كان رفيق طريقه ، ومساعدته على تشريعه . انتفع به لديه الكثير ، وأنجح الآمال محله الاثير .

ولما محقت النكبة نوره (125) ، وقصرت على العفاء قصوره ، ضاق بالخطيب — رحمه الله — العطن ، ونبا به بعده الوطن . (112 . أ) فارتحل الى المغرب ، ولم يزل به رفيع المكانة ، صدرا في أولى العلم والديانة . حتى انصرم أجله ، وانقطع عن الحياة أمله . وكان له شعر يتكلفه ، ولا يكاد — لعدم شعوره بالوزن — يتألفه . ومع ذلك فأعلم أهل زمانه بالبديع وألقابه ، والكلام على أبوابه .

(124) هو الاديب الشاعر أبو عبد الله بن الحكيم اللخمي الرندي ، وزير السلطان محمد المخلوع (701 — 708 هـ) ، واحد شيوخ ابن الخطيب ممن تتلمذ عليهم في ميدان الادب والشعر ، له مؤلف لم يصل اليها اسماء « تاريخ الاندلس » ، توفي ابن الحكيم قتيلا عام 1308 م اثر خلع سلطانه المذكور . وتجدر الإشارة بهذه المناسبة الى أن لقب « ذى الوزارتين » يرجع الى عهد ملوك الطوائف ، وهو من القاب التشريف والتفخيم المتضمنة ازدواج الاختصاص ، أى جمع صاحبه بين وزارتي القلم والسيف ، وقد حظى بهذا اللقب عدة من اكابر وزراء عصر الطوائف ، مثل الشاعر أبى الوليد بن زيدون وزير بنى جهور وبنى عباد والشاعر أبى بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد ، وأبى بكر ابن القصيرة كاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ويعتبر أبو بكر بن عمار أشهر من اضطلعوا بمنصبى القيادة والوزارة . ولئن كانت الوزارة قد توارت أيام المرابطين ثم الموحدين ، الا أنها عادت الى الظهور فى مملكة بنى نصر بفرناطة ، فكان « أبو عبد الله ابن الحكيم » أول من حمل اللقب فى هذه المملكة ، ثم تلاه حاملا نفس اللقب « لسان الدين ابن الخطيب » . راجع : لسان الدين ابن الخطيب — للاستاذ عبد الله عنان ، ص 34 ، 106 ، 214 (القاهرة 1968) . وكذا يوسف الاول ابن الأحمر ، للمحقق ، ص 43 (القاهرة 1969) .

(125) يعنى بهذه النكبة الانقلاب الذى أودى بحياة صديق المترجم له الوزير ابن الحكيم ، على نحو ما أسلفنا فى التعليق .

ومن ذلك في وصف :

90 - أبى عبد الله بن هانى السبتي (126)

علم تشير اليه الاكف ، وتعمل الى لقائه الحوافر والخف ، عمر
الربع ببلده سبتة وقد قضت الرحال ، وأقام درس العلم وقد حالت
الحال ، وجاد بالوابل السجم عندما عظم الامحال . ورفع للعربية
راية لا تتأخر ، ومرج منها لجة تزخر . فانفسح مجال درسه ، وأثمرت
أدواح غرسه . فركض في تلك الميادين ومرح ، ودون وشرح . وجلى
المشكلات ، وداوى العضلات الى شمائل تملك الظرف زمامها ، ونادرة
راشت الدعابة سهامها .

ولما أخذ المسلمون في مناوشة الجبل وحصاره ، وأصابوا الكفر
منه بجارحة ابصاره ، ورموا بالثكل فيه نازح امصاره - كان ممن
انتدب وتطوع ، وسمع النداء فاهطع . (112 . ب) فلازمه حتى نفذ
لااله القوت ، وبلغ من فتحه الاجل الموقوت . فأقام الصلاة بمحاربه
وحياه ، وقد غير محياه طول اغترابه ، وبادره الطاغية قبل أن يستقر
نصل الاسلام في قرابه ، أو يعلق أصل الدين في ترابه . وانتدب - رحمه

(126) هو الشيخ الفقيه الاديب أبو عبد الله محمد بن هانى اللخمى السبتي ، أحد
المبرزين من علماء الاندلس في العربية ، وله المؤلفات الهامة في علوم الدين
والادب ، منها : شرح « التسهيل لابن مالك » ، وكتاب « الغرة الطالعة »
في شعراء المائة السابعة ، و « انشاد الضوال ، وارشاد السؤال » ،
وهو يتناول لحن العامة ، كما دون ترسيل أبى المطرف بن عميرة ، وجعله في
سفرين . وقد توفي - رحمه الله - شهيدا في حصار جبل طارق عام 733 =
1333 م ، ورثاه الشعراء بقصائد مؤثرة ، نذكر منها قصيدة الشاعر أبى
بكر بن شيرين التى يقول فيها :

قد كان ما قال البريد فاصبر فحزنك لا يفيد
أودى ابى الرضى فاعتادنى للكل عيـد
راجع : النبوغ المغربى - للاستاذ عبد الله كنون ، ص 210 - 211 .

الله — الى الحصار وتبرع ، ودعاه أجله فلبى وأسرع . ولما هدر عليه الضيق ، وركعت الى قبلته المجانيق — أصيب بحجر حوم عليه كالجارح المحلق ، وانقض اليه انقضا البارق المتألق . فاقتنصه واختطفه ، وعمد الى زهرة فقطفه . فمضى الى الله طلوع نيته ، وصحبه غرابه المنازع حتى في منيته .

وكان له أردب قاعد عن مداه ، وقاصر في جانب العلم الذى شمله وارتهاده .

ومن ذلك فى وصف :

91 — أبى الحسن بن تداوت

درة تحلى بها الدهر العاقل ، وعدة أنجزها الزمان الهاطل . وغرة أطلعها العصر البهيم ، وفائدة أنجبها الدهر العقيم . ما شئت من خلق تدل على الكمال مخائله ، ومجد كرمته أواخره وأوائله ، وأدب تجلت عذاراه وتبرجت عقائله . فاذا تناول (113 . أ) القاع ووشاها ، وغشى الطروس من خلل بيانه فما عشاها — ودت الجرود أن تتمثل طرسا ، والجفون السود أن تكون لها نفسا .

ورد أبوه — رحمه الله — على البلاد الاندلسية ، فرحبت بمقدمه عليها ، وجلت افادة وفادته لديها . ففادت بها ظلال معارفه التى اغترس ، ودرس فيها علم الاصول بعدما درس . وتصرف فى القضاء ، مقصر فى العدالة والمضاء . ونشأ ابنه هذا كريم النشأة والبداية ، وكنوفا بظل العناية . وتصرف فى القضاء على حداثة سنه وغضارة عوده ، وقرب العهد بتألق سعوده .

ثم حث ركاب ارتحاله ، وبادر حزمه بحل عقاله ، فسعد سعادة شبيهة القمر عند انتقاله . وهو الآن بدولة المغرب — أيده الله — جملة

من جمل الكمال ، ومظنة للآمال . تغرى بثنائه الالسن ، ويروى من أحاديثه ما يصح ويحسن . وورد على هذه البلاد ورود الكرى على مقلة الساهر ، واحتلها احتلال النسيم بين الازاهر . وجمعتى واياه بعض الاسفار ، فى غزوات الكفار . (113 . ب) فاجتنت منه الفوائد بين فرادى ومثنى ، واجتليت منه المحاسن حسا ومعنى .

وقد أثبت من آدابه ما يستعير النسيم العاطر عرفه ، ويحسد الروض حسنه وظرفه .

ومن ذلك فى وصف :

92 - القاضى أبى الحجاج الطرطوشى

روض أدب لا تعرف الذرى أزهاره ، ومجموع فضل لا تخفى آثاره . كان - رحمه الله - صدرا من صدور زمانه ، وممن تزهى المهارق (127) بجمانه ، وتتجلى لباتها بقلائد عقيانته الى ظرف يستهوى النفوس ويستميلها ، وفكاهة تهز أعطاف الوقار وتميلها ، ودعابة تركض أفراس الطرب وتجيلها . ومعرفة فسيحة المدى ، اتشح بفضلها وارتنى ، وغبر فى وجهه من راح أو غدا .

وكان فى فنون الادب مطلق الاعنة ، وفى مغازيه ماضى الظبا والاسنة . فان هزل - والى تلك الطريقة اعتزل - أبرم فى الغزل ما غزل ، وبذل من دنان راحه (128) ما بذل . وان صرف الى المغرب غرب لسانه ، وأعاره لمحة من لمحات احسانه - أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه .

(127) المهارق : بفتح الميم وكسر الراء ، ج مهرق بضم الميم وفتح الراء ، وهى الصحيفة ، كما تطلق على ثوب من الحرير أبيض يستقى الصمغ ويصقل ، ثم يكتب فيه ، كذا فى القاموس واللسان ، وكلا المعنيين مناسب .

(128) دنان راحه : بكسر الدال اوعية خمرة ، والمفرد : دن ، بفتح الدال وتشديد النون .

(114 . أ) ورد على الحضرة الاندلسية (129) والدنيا شابة ،
وريح القبول هابة . فكتب عن سلطانها واجتلى محاسن أوطانها ، ومدح
بعض أملاكها ، وعشى الى نور أفلاكها . ثم كر الى وطنه وعطف ، وأسرع
اللاحق بجوه كالبارق اذا خطف ، فورد من العناية الحياض الفاهية (130)
والنطف ، وحل رياض الكرامة فهصر ما شاء وقطف . وتصرف في القضاء
بذلك الريف سالكا من الادب سننه الطريف ، ومنزعه الظريف .

وتوفى — على هذا العهد — عن سن عالية ، وبرود من العمر بالية .
وقد حلب أشطر الدهر وأخلافه (131) وارتنع سلاغه ، حتى أمر عنده
من العيش كل عذب الجنى ، وبذل من الشطط بالجنى . وبلغ من المقام
لهذه الدار حده ، والبقاء لله وحده .

ومن ذلك فى وصف :

93 — أبى العباس بن شعيب (132)

مورد ترده البهيم فتروى ، وتهوى اليه النفوس فتجد عنده ما
تهوى . وصدر لا يخفى مكانه ، وذخر أضاعه زمانه . (114 . ب) حاز
من كل فن نصيبا ، ورمى الى كل غرض سهما مصيبا . واستمطر كل

(129) يعنى بالحضرة الاندلسية على عصره « غرناطة » .

(130) الحياض الفاهية : الممتلئة .

(131) التعبير كناية عن انه خبر الدهر وجربه .

(132) هو الكاتب الشاعر أبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي الفاسى . من

حفظة الشعر ونقدته ، وممن جمعوا بين ملكة الشعر والنثر بالاضافة الى

جودة الخط . عمل كاتبا فى ديوان الانشاء لدى السلطان أبى الحسن المرينى .

وشهر عنه — مع ذلك — معرفته بالطب والكيمياء وعلم النبات . توفى بتونس

يوم عيد الاضحى من عام 749 هـ (مارس 1349 م) .

راجع : المصدر السابق ، ص : 227 .

عارض وديمه ، من العلوم الحديثة والقديمة فبرع في فنونها وبهر ،
وحذق الطب منها ومهر . وبلغ في صنعة النبات درجة الاثبات . ورضى
بالانتماء الى العلم والانتساب ، من الاكتساب . فما أهمه الدهر بألوانه ،
ولاثنائه عن شأنه . وعانى في حركاته وانتقاله ، مشقة اعتقاله ، وخلص
خلوص الحسام بعد صقاله . وهو — الآن — من كتاب ملك المغرب (133)
تطوى عليه الخناصر اذا عدوا ، وتدخر لقصب السبق اذا أحصروا
واشتدوا .

ورد على الحضرة في خدمة لبعض الولاة تولاه ، ووجهة فرى لها
الفلا وغراها . فرأيته رؤية لم تنهض للمحاورة والكلام ، والمخاطبة لما
يجب لمثله من الاعلام ، لجمود هذا الباعث عندي في العهد المتقدم (134)
ولم ألبث أن عضضت يد المتقدم ، أسفا على ما ضاع من لقاءه ، واجتلاء
الفوائد من تلقائه .

وله شعر تهوى الشعرى أن تتخذة شنف (135) (115 . أ) ، ونثر
تود النشوة لو تتحلى به وان شمخت أنفا . من ذلك ما خاطب به
الشيخ أبا جعفر بن صفوان ، وقد رمى اليه بقاصية هواه ، واعتده في
رحلته أنفس ذخـر حـواه .

(133) السلطان أبو الحسن المريني ، كما ذكرنا (731 — 752 هـ) .

(134) يشير ابن الخطيب بهذا الى فترة شبابه بالاندلس ، حينما كان وزيرا لملك
غرناطة أبي الحجاج يوسف الاول (733 — 755 هـ / 1333 — 1354 م)
المعاصرة لملك المغرب يومئذ (أبي الحسن المريني) ، ونستنتج من اشارة
ابن الخطيب هذه الى أن تأريخه لهؤلاء المترجم لهم — في هذا الكتاب — كان بعد
نزوحه للمغرب نهائيا .

(135) الشنف . بتشديد الشين مع الفتح واسكان النون ، وهو : ما يعلق في الاذن
أو أعلاها من حلى عند النساء ، والجمع : شنوف ، وأشناف .

ومن ذلك في وصف :

94 — « الكاتب أبي عبد الله بن عمر التونسي »

كاتب الخلافة ، ومشعشع الادب المزرى بالسلافة . كان — رحمه الله — بطل مجال ، ورب روية وارتجال .

قدم على هذه البلاد (136) وقد نبا وطنه ، وضاق — ببعض الحوادث — عطنه . فتلوم بها تلوم النسيم بين الخمائل ، وحل فيها محل الطيب من الوشاح الجائل . ولبت — مدة اقامته — تحت جراية واسعة ، وميرة يانعة . ثم أثر قطره (137) فولى وجهه سطره . واستقبله دهره بالانابة ، وقلده رياسة الكتابة . فاستقامت حاله ، وحطت رحاله . حدثني بعض من عنى بأخباره ، أيام مقامه برية واستقراره . أنه لقي بباب الملعب ذات ليلة — ظبية من ظباء الانس ، وفتنة من فتن (115 . ب) هذا الجنس . فخطب وصالها ، واتقى بمهجته نضالها . حتى همت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن المياد . فأبقى على نفسه وأمسك ، وأنف من خلع العذار بعدما تنسك .

ومن ذلك في وصف :

95 — « أبي عبد الملك » (138)

من أهل مراكش

وقور أفرط حتى أثقل ، وقريع مجد مسه الاحتياج فتنقل ، ووجد الجميم فعافه وتبقل . وحل من بلده مراكش لما جف حوضه ، وصوح

(136) هذه البلاد : يعنى بها الاندلس .

(137) قطره : يعنى به تونس .

(138) مراكش : عاصمة المرابطين والموحدين بجنوب المغرب ، أسسها زعيم الاولين وأعظمهم يوسف بن تاشفين عام 454 هـ (1062 م) وبنى بها مسجده

روضه . واتخذ رية دارا ، واختارها قرارا . وجرت عليه جراية تبلغ بها ، وارتغد بسببها ، رعيا لابييه ، واحتراما لبيته النبيه . فقد كان أبوه — رحمه الله — قاضيها صدرا في عصره ، وبدرا في هالة قطره . رحب المجال نسيج وحده معرفة بطرق الحديث وأسماء الرجال . متجرا في علوم الآداب ، منتدبا لاقامة رسم المعارف كل الانتداب .

وابنه هذا متمسك من الآداب بأذيالها ، مغرى بإدارة جريالها . الى سرو عميم (139) ، ووفاء يثنى كل صديق (116 . أ) له حميم . ولما تقلدت بهذه البلاد تنفيذ أرزاق الاجناد بادرت الى تقديم واجبه ، وايثار جانبه .

ومن ذلك في وصف :

96 — أبى اسحاق الحسانى من أهل تونس

شاعر لا ينضب طبعه ، ولا يقفر ربعه . قصد الملوك وانتجع ،

المعروف باسم « جامع يوسف » ولما جاء المرينيون تحولوا عنها الى « فاس » واتخذوها حاضرة لهم ، ففقدت مراكش من ذلك الحين مركزها السياسى . وقد شيد بها الموحدون جامع الكتبية بمنارته الشهيرة ، وبمراكش من آثار السعديين مقابرهم العظيمة ، وللعلويين بها جنان أجدال ، التى أنشأها عبد الرحمن بن هشام العلوى . وبالمدينة ضريح القاضى عياض ، وأبو العباس السبتى ، وأبو القاسم السهل ، ومحمد بن سليمان الجزولى . تشتهر مراكش بصناعة الجلد والصباغة والنحاس ، والمنسوجات الوطنية ، والزراوى . وخارجها مزارع الزيتون ، وواحات النخيل الشاسعة ، تحوطها جبال الاطلس التى تكسوها الثلوج شتاء . راجع : البغدادى فى « مراصد الاطلاع ، على أسماء الامكنة والبقاع » ج 3 ، ص 1251 .

(139) سرو عميم : شرف شامل .

وهدل في أفنان أمداحها وسجع . وتجراً على اقتحام دسوتها (140) ،
 وولوج بيوتها . وقدم على هذه البلاد فأعجب الأدباء باكثره ، وانقياد
 نظامه ونثاره ، وتنوزع في ايثاره . ثم استرسل طوع لذاته ، وسعى في
 جلب المكروه الى ذاته . ونمى عنه قيل وقال ، ناله به اعتقال . ثم
 تكرر على هذه البلاد وقد تبدلت تلك الدولة ، وضممت تلك الصولة .
 فتلقى باقبال ، وهبت له ريح اهتبال . ثم حركه الشوق الى بلده ، وبلغ
 نواه الى أمده .
 وقد أثبت من شعره ما يدل على استرسال لهواته ، واقتداره على
 الكلام من جميع جهاته .

ومن ذلك في وصف :

97 — أبى عبد الله المكودى (141) من أهل فاس

(116 . ب) شاعر لا يتعاطى ميدانه ، ومرعى بيان رف غضاه
 وأينع سعدانه . يدعو الكلام فيهطع لداعيه (142) ، ويسعى في اجتلاب

-
- (140) دسوتها : يعنى بها صدور المجالس . والمفرد منه دست ، بفتح فسكون ،
 والكلمة أصلاً فارسية ولها عدة معان أخرى ، منها صدر البيت ، والوسادة
 والمرجل الكبير من النحاس ، وغير ذلك . كذا في القاموس المحيط .
- (141) هو الأديب الشاعر محمد بن عبد الرحمن المكودى الفاسى ، يكنى أبا عبد
 الله ، والنسبة الى بنى مكود ، قبيلة من الهوارة التى كانت تقطن بين فاس
 وتازة ، ثم استقرت أسرة المترجم له فى فاس ، فعرفت من بين بيوتها الطريقة
 بالعلم والفضل ، ويعد أبو عبد الله هذا من شعراء عصره المبدعين ، وممن
 عرفوا بدقة تصوير العواطف النفسية ، وجودة التعبير عنها ، حتى كان
 لشعره وقع جميل فى قلوب سامعيه . توفى — رحمه الله — عام 753 هـ .
 راجع : الاستاذ عبد الله كنون فى « النبوغ المغربى » ص : 227 — 228 .
- (142) يهطع لداعيه : يسرع اليه مقبلاً ، والمصدر منه : هطعا ، بفتح فسكون ،
 وهطوعاً بالضم .

المعانى ، فتنجح مساعيه . غير أنه أفرط فى الانهماك ، وهوى الى
بطن السمكة من أوج السماك .

قدم على هذه البلاد مفلتا من رهق تلمسان حين الحصار (143) ،
صفر اليمين واليسار من اليسار فل هوى انحنى على طريفه وتلاده ،
وأخرجه من بلاده . ولما جد به البين ، وحل هذه الحضرة بحال تقتحمها
العين ، والسيف بهزته ، لا بحسن بزته — دعوناه الى مجلس أعار البدر
هالته ، وخلع عليه الاصيل غلالته . وروض تفتح كمامه ، وهمى عليه
غمامه . وكأس أنس تدور ، فتتلقى نجومها البدور .

ولما ذهبى المؤانسة لخلجه ، وتذاكر هواه ، ويوم نواه ، حتى
خفنا حلول أجله — جذبنا للمذاكرة زمامه ، واستسقينها منها غمامه .
فأمتنع واحسب ، ونظر ونسب . وتكلم فى المسائل وحاضر بطرف
الابيات وعيون الرسائل . حتى نشر الصباح رايته . وأطلع النهار
آيته .

ومن ذلك فى وصف :

98 — الادبية أم الحسين بنت أحمد الطنجالى نزيلة لوشة

ثالثة حمدلة وولادة ، وفاضلة جمعت الادب والمجادة ، وتقلدت
المحاسن قبل القلادة ، وأولدت أ بكر الافكار قبل سن الولادة . نشأة

(143) تذكر المؤرخات فى صدد هذا الحصار ، أن أبا تاشفين عبد الرحمن بن موسى
بن عثمان بن يغمراسن بن زيان كان آخر من تولى الملك من بنى زيان فى
تلمسان عام 718 هـ ، ثم نشب خلاف بينه وبين السلطان أبى عنان ملك المغرب
الذى هب لمنازلته ، وحاصره ثلاث سنوات ، بعدها استولى أبو عفان
على المدينة ، وذلك ليلة 27 من شهر رمضان 737 هـ (29 أبريل 1337 م) .
راجع : « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » لابن الخطيب بتحقيقنا ، ص : 57
وما بعدها (القاهرة 1968 م) .

أبيها لا يدخر عنها تدريجا ولا تنبيها ، حتى نبض ادراكها ، وظهر فى المعارف حراكها . ودرسها الطب ففهمت أعراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه . ولم يزل يتعهدا بالتعليم والتخرج ، وينقلها بحسن التدرج ، حتى نظمت الكلم ، وداوت بالسبك المعنى الالم .

ولما قدم أبوها من المغرب ، وتكلم بخبرها المغرب ، توجه بعض الصدور الى اختيارها ، ومطالعة أخبارها . فاستحسن أغراضها واستحسنها واستظرف لسنها . وسألها عن الخط — وهو أكسد بضاعة جلبت — فأنشدته من نظمها ما ثبت فى التاج (المحلى ، فى مساجلة القدح المعلى) (144) .

(144) التاج المحلى : أحد مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب ، وهو عبارة عن تراجم لآعيان الأندلس فى منتصف القرن الثامن الهجرى ، وتنويه بمملكة بنى الأحمر منذ نشأتها حتى عصر المؤلف . وقد اعتمد المقرئ على هذا الكتاب فى كثير من التراجم التى أوردها فى كتابه « نفح الطيب » . وتوجد « للتاج المحلى » نسخة مخطوطة ضمن مخطوط ضخم بالاسكوريال بمديرىد تحت رقم : (554 الفزيرى) .

راجع : البحث المنشور للمحقق فى مجلة « تراث الانسانية » ، بعنوان : « معيار الاختيار لابن الخطيب » ، المجلد الرابع — العدد 4 (أبريل 1966) الصادرة عن وزارة الثقافة بالقاهرة .

الباب الثاني

أوصاف الناس في التواريخ والصلوات

القسم الثاني

ومن ذلك (1) ما ثبت في « الاكليل الزاهر » ، فيمن (83 : ب) فضل
عند نظم التاج من الجواهر « (2) في وصف :

1 - الخطيب أبي عبد الله الساحلي المالقي

الولى - نفع الله به (3)

عابد لا يفتر عن عبادة ، وولى ظهرت عليه أنوار سعادة ، لم يدع
وقتا من عمره الا عمره ، ولا دوحا من الذكر الا جنى ثمره . فضربت

-
- (1) اسم الاشارة يعود على ما تضمنه مؤلف ابن الخطيب « الريحانة » أيضا .
 - (2) يشمل القسم الاول من الاوصاف التراجم التى مرت من أول الكتاب الى هنا ،
والتي اجتزاها المؤلف من كتابه « التاج المحلى » ، في مساجلة القدح المعلى ،
كما عبر عن ذلك في البدايه .
 - راجع : مقدمة الكتاب ، (ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب) لوحة 1 . ب ،
مخطوط الاسكوريال ، تحت رقم 1835 من فهرست الغزيرى .

أما « الاكليل » فهو أحد مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب التي ترجم فيها لبعض الاعلام
من معاصريه ، أمثال شيخه ابن الجياب ، وابن مقاتل المالقي ، ومحمد بن على
العبدري ، وأبى القاسم العزفى السبتي ، وغيرهم في هذا القسم من
« الاوصاف » . ويعتبر كتاب « الاكليل » مكملا لكتاب « التاج المحلى »
للمؤلف أيضا ، وقد ورد بعده في المخطوط رقم 554 الغزيرى بالاسكوريال ،
ويشغل به من لوحة 117 م . الى 134 ب . وقد نقل المقرئ منه بعضا فى
التراجم .

راجع : المقرئ فى « نفع الطيب » ج 4 ص 446 — 447 ، وعنان فى كتابه :
« لسان الدين ابن الخطيب » ص 251 .

- (3) هو الشيخ الخطيب الصالح أبو عبد الله محمد بن أحمد الساحلي المالقي ،
المتوفى عام 635 هـ ترجم له المؤلف أيضا فى كل من « الاحاطة » ، و « الكتيبة
الكامنة » كما ترجم له الحضرمى فى فهرسه ، وابنه فى كتابه « بغية المسالك »
أنظر : نيل الابتهاج ص 235 (ط . فاس) والكتيبة ص 45 .

اليه الركائب أرباب السلوك ، وعظم في قلوب الامراء والملوك . وخطب
السفارة في صلاح ذات البين ، واتصال أهل الدولتين (4) .

وأما الخطابة ، فكان من فرسانها ، وذوى احسانها ، يعبر عن
الوقائع والاحوال بمختلفات الاقوال ، في أسلوب جهير ، ومقام شهير .
وله خلف متسم بالخير والعفاف ، متصف من الديانة بأحسن
الاصاف .

ومن ذلك في وصف :

2 - أبى جعفر الشاطبى (5)

الشيخ الفاضل أبو جعفر - رحمه الله - شيخ طالت مصاحبته

(4) يعنى بالدولتين : المغرب والاندلس .

(5) نسبة الى شاطبة Jatina أحد القواعد الاندلسية زمن المسلمين ، وهى
اليوم بلدة صغيرة ، وتقع على بعد خمسين كيلومترا تقريبا جنوب غربى
بلنسية ، قرب البحر الابيض المتوسط ، وبينها وبين بلنسية بسيط أخضر
جميل ، تحده الجبال من الجانبين ، ممتدا على ضفة نهر البيضاء Albaida
أحد فرع نهر شقر . ويرجع تاريخ شاطبة الى العصر الفينيقي ، وفي العهد
الرومانى امتازت المدينة بالازدهار ولبثت أيام القوط في رخاء ، وفي العصر
الاسلامى ازدادت أهمية ونشاطا الى أن استردها الاسبان بعد حصار مرير
في عهد الملك خايمى الاول عام 647 هـ (1249 م) . هذا وتشتهر شاطبة
اليوم بأديرتها وقصورها العتيقة ، وبحصنها الشهير باعلا ربوة فيها ، وتزدان
المدينة بالميادين الاثرية ذات التماثيل والنافورات ، وتضاهى الى حد كبير في
طرازها الاثرى مدينة مرسية المعروفة ، ويعمر متحفها بمختلف الاجزاء
الاثرية من العصر العربى خاصة .

أما المترجم له فهو الشيخ أبو جعفر أحمد بن عتيق الشاطبى ، من قدماء
أساتذة الاندلس وقضاتها المعروفين بضبط الوثائق ، والبصر بعلمها ، توفى
ببرجة عام 743 هـ عن سن تناهز التسعين ، بعد عزله عن منصبه .
راجع : محمد عبد الله عنان في (الآثار الاندلسية الباقية) ص 139 - 140 ،
(القاهرة ط 2 سنة 1961 م) ونيل الابتهاج ، ص : 46 (ط . فاس) .

ومسكين ، وذبح بغير سكين (6) .
للانساء ، ومصابحته للاصباح والامساء . طالما نظر (84 . أ) بين قوى

يقضى عمره في الحقوق ، ويهب بين الرعود والبروق . قطع فى
ذلك — زمانه ، وند أقرانه . واكتسب مالا ، وبلغ في الدهر آمالا ، ثم
أوبقته (7) أشراك الحمام ، وكل شيء فالى تمام .

وله شعر تلوح عليه — من الحسن — مسحة ، وتنم منه — للطرف —
نفحة .

ومن ذلك في وصف :

3 — الخطيب ابن على القرشى (8)

شهاب في أفق الدين متألق ، وسهم على فريسة النجاة — محلق ،
وعارف — بأخلاق الرجال — متخلق . كثير الانقباض ، معرض عن
الاعراض . كلف بما للقوم من المقاصد والاعراض . ملازم كسر بيته
على ذكر يردده ، ولباس اخلاص على الاحيان يجددده ، وسهم بحث الى
هدف تلك الاسرار يسدده . فاذا تردد الى المسجد الاعظم محل اقامته ،

(6) اشارة الى الحديث الشريف ، « من افنى بغير علم ذبح بغير سكين » واذن

فالكناية في تعبير المؤلف تعنى ان المترجم له كان يتصدر للقضاء والفتوى .

(7) فعله « وبق » كوعد ووجل ، والمصدر « وبوقا » ، و « موبقا » بمعنى
الهلاك ، وأوبقه حبسه أو أهلكه ، كذا في اللسان والقاموس .

(8) هو الشيخ الخطيب أبو على بن على بن عتيق بن أحمد القرشى ارتحل وقصد
الحج ولقى في طريقه شيوخا أجلاء فأخذ عنهم وتولى الخطابة بالجامع الاعظم
في غرناطة فترة تربو على اثنتين وثلاثين سنة ، وقد ولع بالتصوف — ترجم
له الحضرمي ، ونقل عنه صاحب — نيل الابتهاج ص 177 (ط . فاس) .

ومسحب غمامته — انثال (9) الناس على أطرافه ، في قصده وانصرافه .
فتسبحهم بشاشة لقاءه ، وتحييهم بركة دعائه .

ومضى لسبيله صدرا من صدور الصالحين ، وعلمنا من عباد الله
(84 . ب) المفلحين وكانت جنازته مثلا في الاحتشاد لها والاحتفال ،
وعنوانا على العناية من ذي الجلال .

ومن ذلك في وصف :

4 — القاضي أبي عمر بن منظور (10)

صاحب نظر وبحث ، ومعاطاة لأكواس الفنون وحث . لا يزال يفى
أديمها ، ويجمع حديثها وقديمها ، وهو أحد أعلام هذا القطر ، أولى
المكانة الرفيعة والخطر .

ولى قضاء رية (11) غير ما مرة ، فساس وسدد ، وأسس وجدد ،
ومن سنن الفضلاء ما جرد .

الى مجلس ممتع ، وفهم الى الغوامض والعلوم مسرع ، ودعابة
تنقلت من خلال وقاره ، وتغالب على مقداره .

(9) انثال الناس على أطرافه ، كناية عن اقبالهم عليه في تجلة واحترام ، لعلمه
وفضله .

(10) هو الشيخ القاضي أبو عمر عثمان بن محمد بن يحيى بن منظور القيسى
المتوفى عام 735 هـ ببلده مالقة ترجم له ابن الخطيب في كل من الاحاطة وعائد
الصلة ، ونقل عنه القاضي النباهى في « المرقبة العليا » ص 147 .

(11) احدى ولايات الاندلس القديمة من نواحي مالقة ، كان ينزل بها جند الاردن
زمن الفتح العربى .

وشعره قليل جدا ، لم يعركه هزلا ولا جدا . الا أنني رأيت بخطه أبياتا من نظمه على ظهر فهرسة الوزير أبي بكر بن الحكيم (12) .

ومن ذلك في وصف :

5 - الخطيب ابن الطاهر بن صفوان المالقى

علم من أعلام هذه البقعة ، ورخ من رخاخ هذه الرقعة ، اقتفى أثر الصالحين واقتصه ، واقتدى بمن تولاه الله واختصه ، (85 . أ) فلو تمثل الخير لكان شخصه ظهرت عليه بركات مكة والمدينة ، فلبس شعار السكينة ، وتواضع على التربية المكيبة ، وحصل من أسرار القوم على الدرر الثمينة . فكان يتكلم على مصنفاتهم ، ويتصف بصفاتهم ، فيأتى بالعجائب في فك تلك الرموز وإيضاحها ويتحف منها الصدور بانسراحها .

(12) ذكر ابن الخطيب 8 « الكتيبة » ان كتاب هذا الوزير يسمى « الفوائد المنتخبة ، والموارد المستعذبة » .

أما الابيات التى نظمها ابن منظور فى ظهر الكتاب فنصها :

قد جمع الحكم وفصل الخطاب ما ضمه مجموع هذا الكتاب
من ادب غرض ومن عللة فتسابقوا للخير فى كل باب
فجاء فذا فى العلا والنهى ومنتقى صفو لباب اللباب
الفه الحبر الجليل الذى حاز العلا ارثا وكسبا فطاب

هذا ، والوزير أبو بكر الحكيم هو الكاتب ابن ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم ، توفى عام 750 هـ وقد ترجم له ابن الخطيب فى « الاحاطة » ج 2 ص 99 - ، كما ترجم له كذلك فى « أوصاف الناس »

(13) هو الشيخ محمد بن أحمد بن حسين بن صفوان القيسى المالقى ، ترجم له المؤلف أيضا فى « الكتيبة » 54 .

حضرت معه غير ما مرة فراقني محضره ، وبهر في تلك المعاني
بظره . وله نظمه — رحمه الله — وكان لا ينتحل النظم ولا يتعطاء ،
ولا يحث فيه خطاه (14) .

ومن ذلك في وصف :

6 — الشيخ أبي عبد الله الطرطوشي (15)

معدود في الصدور ، ومنظوم في الشذور ، ومسحوب فيمن أطلعته
آفاق هذه الدور ، من النجوم المشرقة والبدور . ينظر في معقول ومنقول ،
ويستظهر على المشكلات بفرند وذهن مصقول الى خط وظرف ، وفكاهة
كالروض فيمن رأى وعرف ، ترقى للبر سناما ، ولقى من الدولة

(14) ينمى عليه انه لا يبدى جهدا يتناسب وقرض الشعر الجيد .

(15) نسبة الى « طرطوشة » Tartosa احدى المدن الاسبانية الواقعة على
نهر « ابرو » الذي يشق ولاية اراجون في الشمال ، تحيط بها الجبال عن
بعد ، ويشقها هذا النهر الى قسمين ، وهى ذات بسيط من الحدائق والحقول
النضرة ، والغابات الكثيفة من النخيل . وتوجد بأطرافها اطلال القلعة القديمة
سقطت طرطوشة في ايدى النصارى عام 543 هـ (1148 م) بالتسليم صلحا ،
وتوجد بكنيستها الآن لوحة حجرية اسلامية مربعة تقريبا بمساحة نصف
متر ، ذات نقش عربى ما زال معظمه باديا ونصه :
« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه الدار عدة للصناعة والمراكب عبد
الله بن محمد بعون الله ونصره في سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، وكتب عبد الله ابن
كليب » .

نسب الى هذه المدينة أبو بكر الطرطوشي صاحب كتاب « سراج
الملوك » المتوفى عام 520 هـ (1126 م) ، وبها مرصد طرطوشة المشهور ،
كما أن للمدينة تاريخها العلمى الثقافى منذ العصر الاسلامى .
راجع . عبد الله عنان في « الآثار الباقية في الاندلس » ص 120 — 122 .

النصرية (16) (85 . ب) اكراما الى أن فسد ما بين مدبرها ابن المحروق وبينه ، ونميت له عنه هنات أو غرت صدره ، وأقذت عينه ، فغربه (17) بعدما قربته ، وجفاه من بعد ما اصطفاه فجم في الاغتراب — حينه ، واقتضى ببعض البلاد الافريقية دينه .

وكان لا ينتحل الشعر بضاعة ولا يعول عليه صناعة . وربما رمى غرضه فأصاب واستمطر له غمام معارفه فصاب .

ومن ذلك في وصف :

7 — الفقيه ابن عبد الله بن الحاج من أهل مالقة

شاعر اتخذ النظم بضاعة ، وما ترك السعى في مذهب ساعية أجرى في الملاء لا في الخلاء ، وجعل دلوه في الدلاء ، وركض في حلبة النجباء والنجائب ، ورمى بين الخواطي بسهم صائب . فخرج بهرجه ونفق ، وارتقد — بسببه — وارتفق .

وهو الآن — قد سالمته السنون ، وكأنها أمن المنون ، وهو رجل مكفوف الاذى ، حسن الحالة اذا هذى ! !

(16) الدولة النصرية ، آخر دولة للمسلمين بالاندلس ، وتعرف أيضا بدولة بنى الأحمر ، وقد حكمت مملكة غرناطة ما يربو على مائتين وخمسين عاما (635 — 897 هـ = 1238 — 1492 م) مؤسسها محمد بن يوسف ابن الأحمر ، وآخر ملوكها أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن يوسف النصرى .
راجع : « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » ص 16 — 21 للمحقق (القاهرة 1968 م) .

(17) غربه ، بتشديد الراء يعنى . أبعدته عن مجلسه ، وربما عن البلاد .

ومن ذلك في وصف :

8 - الشيخ الوزير علي بن عفرون

(68 . أ) شيخ خدم ، قام له الدهر فيها على قدم ، وصاحب تعريض ، ودهاء عريض ، وفائز من الدولة النصرية بأياد بيض . أصله من حصن منتفريد (18) حرسه الله . خدم الدولة النصرية عند انتزاع أهله ، وكان ممن استنزلهم من حزنه الى سهله ، وحكم الامر العالي في يافعه وكهله . فاكسب حظوة أرضته ، ووسيلة أرهقته وامضته ، حتى عظم جاهه وماله ، وبسقت آماله . ثم دالته الدول وتنكرت أيامه الاول ، وتغلب من يجانسه ، وشقى بين (من) كان ينافسه ، فخف عوده والتأثت سعوده ، وهلك والخمول يعله ، والدهر يقوته من صباية حرث كان يستغله . وكان له شعر لم يثقفه النظر ، ولا وضحت منه الفرر ، كتب الى السلطان أمير المسلمين منفق سوق خدمته ومتعهده بنعمته ، يطلب تجديد بعض غاياته ، ما ثبت في الكتاب المذكور (19) .

ومن ذلك في وصف :

9 - الوزير الكاتب أبي عبد الله بن عيسى (20)

(86 : ب) من أعلام هذا الفن ، ومشعشعي هذه الدن ، مجموع أدوات ، فارس براعة وذوات . ظريف المنزع ، أنيق المرأى والمسمع . اختص بالرياسة فأدار فلك أمارتها ، واتسم باسم كتابها ووزرائها ، ناهضا

-
- (18) منتفريد Monteferio مدينة أندلسية صغيرة ، موقعها شمال مدينة لوشة .
(19) يشير الى كتابه « الاكليل الزاهر » السابق الاشارة اليه في بداية القسم الثاني من « الاوصاف » .
(20) هو الكاتب الوزير أبو عبد الله محمد بن محمد بن عيسى الحميري . تحدث عنه المؤلف كذلك في « الكتيبة » ص 158 - 162 ، تحت عنوان « طبقة من خدم ابواب الامراء من الكتاب والشعراء » مشيرا الى ان هذه الطبقة متميزة من بين الادباء ، موردا له امثلة من شعره .

بالاعباء ، راقيا في دوح التغريب والاجتباء ، مصانعا دهره في راح
وراحة ، آويا الى فضل وسماحة ، وخصب ساحة . فكلما فرغ من شأن
خدمته ، وانصرف عن رب نعمته — عقد شربا ، وأطفا — من الاهتمام
بغير الايام — حربا . وعكف على صوت يستعيده وطرف يبيده ويعيده فكلما
تقلبت بالرياسة الحال ، وقوضت منها الرجال — استقر بالمغرب قريبا ،
يقلب طوقا (21) مستيريا وتتخط الدنيا تبعة عليه وتثريا ، وان كان
لم يعدم من أمرائها حظوة وتقريبا . وما برح ييوح بشجنه ، ويرتاح الى
عهود وطنه .

ومن ذلك في وصف :

10 — الكاتب أبي بكر بن العريف

بقية الظرفاء من ديوان الحساب . أى نفس صافية من الكدر
(87 : أ) وصدر طيب الورد والصدر . ودوحة عهد تندى أوراقها ،
ومشكاة فضل يستطيع اشراقها . تمسك برضاع الكأس ، يرى ذلك من
حسن عهده ، وقسم لحظاته بين آس الرياض وورده . فلما حوم حمامه
للوقوع ، وكاد يقوض رحله عن الربوع وشعر بحبائل المنية تعتلقه ،
وسرعان خيل الاجل ترهقه — أقلع عن فنه ، وأمر بسفك دمه . ولجأ
الى الله بأوبته ، وضرع الى الله في قبول توبته وغفران حوبته فكان
ذلك عنوان الرضا ، وعلامة عفو الله عما مضى .
دخلت عليه في مرضه ، وأشرت باستعمال الدواء المسمى بـ :
«لحية التيس» عند الاطباء ، واستعمله ، فوجد بعض خفة فأنشدنى في
ذلك من نظمه ما ثبت في الكتاب المذكور .

(21) في نسخة أخرى . « طرفا » وهو الاوفق .

* تجدر الإشارة الى أن لابن الخطيب مؤلفات في الطب أشهرها كتاباه : « عمل من
طب لمن حب » ، « الاصول في حفظ الصحة في الفصول » عدا رسائل صحية
متفرقة .

ومن ذلك في وصف :

11 - الشيخ أبي عبد الله المتأهل

كثيف الحاشية معدود في جنس السائمة والماشية (87 . ب)
تليت على العمال به سورة الغاشية (22) تولى الاشغال السلطانية ،
فذعرت الجبال لولايتها ، وقامت قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل
القنوط ، وقالوا . جاءت الدابة تكلمنا وهي احدى الشروط (23) من
رجل صائم الحشوة ، بعيد عن المصانعة والرشوة . يتجنب الناس ،
ويقول المخاطبة لامساس ، وعلى مساحته ونجهه ، وتجهم وجهه .
كان خالطا اساءته باحسانه ، مشتغلا بشانه ، غاضا من عنان لسانه .

عهدي به في الافعال يقدم فيها ويدبر ، ويترجم ويعبر ويحبط
ويتبر وهو مع ذلك يكبر ، ويحسن من الازمة ويقبح ، وهو يسبح . ولما
شرع في البحث والتنقيب ، والمحاسبة على القطمير والنقيير - أتاه
قاطع الاجل ، فحث ركابه بأقصى العجل .

وصدرت عنه أبيات خضم فيها وتضم ، وحصل تحت القدر
المشترك مع من نظم .

ومن ذلك في وصف :

12 - الشيخ أبي عبد الله بن ورد

(122 : أ) لودن حلبة الآداب ، وسنور عبد الله بيع بغيراط لما
شاب . هام بوادي الشعر مع من هام ، واستمطر منه الجمام . فجاء
بأبيات أوهن من بيت العنكبوت نسجا ، ومقاصد لا تبين قصدا ولا نهجا .
وله بيت معمور بقضاة أكابر فرسان أقلام ومحابر . وعمال قادوا الدهر

بأزمة أزمتهم ، وقرعوا الزهر بهمتهم . وتكاثرت عليه — رحمه الله —
الاحن ، ومقاومته المحن . وتصرف آخر عمره في بعض الاعمال المخزنية .
فتعل بنزر القوت ، الى الاجل الموقوت .

ومن ذلك في وصف :

13 — « الشيخ أبى عبد الله العراقى الوادى آشى »

معدود — فى وقته — من أدبائه ، ومحسوب فى أعيان بلده
وحسبائه . كان رحمه الله من أهل العدالة والخير ، سائراً على
منهج الاستقامة أحسن السير . وله أدب لا يقصر عن السداد وان لم
يكن بطلا فمن يكثر فى السداد .
وقد أثبت له ما عثرت عليه مما ينسبه الناس اليه .

14 — « أبى جعفر الجوال الملقى »

معتز غير قانع ، ومنتجع كل شهم ويافع . نشأ ببلده بمالقة .
أبرع من أورد ليراعه فى نفس ، وهز غصنها فى روضة طرس . الا ما
كان من سخافة عقله وقعوده تحت المثل أخبر نقله . لا يرتبط الى رتبة ،
ولا ينتمى الى عصابة ، ولا يتلبس بسمت ، ولا يستقيم من أمت .
أخبرنى من عنى بخبره ، وذكر عبره ، من صباه الى كبره ، أنه
رشح فى بعض الدول ، وعرض لاكتساب الخيل والخول ، وخلعت عليه
كسوة فاخرة ، وشارة بزهر الرياض ساحرة ، فانقاد طوع حرمانه
ونبذ صفقة زمانه . وحمله فرط النهم على أن ابتاع فى حجرها طعاما

كثير الدسم . وأقبل وأذياه منه تقطر كما اختلفت باللبن الاشطر .
فطرد ونبذ وطرح بعدما جبل .
لقيته بمالقة وقد تغلبت عليه زمانه ، وسقطت في يديه فانتابنى
بأمداحه ، وتعاورنى بأجاجة وقراحه .

(123 : أ) ومن ذلك في وصف :

15 - « أبى الحسن الدرداد الملقى »

أديب نار فكره تتوقد ، وأريب لا يعترض كلامه ولا ينتقد . أما
الهزل فهو طريقته المثلى ، ركض في ميدانها وجلى ، وطلع في أفقها
وتجلى ، فأصبح علم أعلامها ، وعابر أحلامها . ان أخذ بها في وصف
الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألم بالربيع وفصله ، والحبیب
ووصله ، والروض وطيبه ، والغمام وتقطيبه - شق الجيوب
طربا ، وعل النفوس أريا وضربا . وان أشفق لاهتلال العشية ، فى
فرش الربيع الموشية ، ثم تعداها الى وصف الصبوح ، وأجهز على
الزق المجروح ، وأشار الى نغمات الورق ، يرفلن فى الحلل الزرق ، وقد
اشتعلت فى عنبر الليل نار البرق ، وطلعت بنور الصباح فى شرفات
الشرق - سلب الحليم وقاره ، وذكر الخليع كاسه وعقاره ، وحرك
الاشواق بعد سكونها ، وأخرجها من وكونها . بلسان يتزاحم على
موارد الخيال ، ويتدفق من حافاته (123 : ب) الادب السيال . وبيان
يقيم أود المعانى ، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المبانى ، ويكسو حلل
الاحسان جسوم المثالث والمثنى . الى نادرة لمثلها يشار ، ومحاضرة
يجنى بها الشهد ويشار .

وقد أثبت من شعره المعرب - وان كان لا يتعاطاه الا قليلا ، ولا
يجاوره الا تعليلا - أبياتا لا تخلو من مسحة جمال على صفحاتها ،
وهبة طيب ينم فى نفحاتها .

ومن ذلك في وصف :

16 - الاديب أبى الاصبع عزيز بن مطرف

ظريف السجية ، كثير الاريحية . من لورقة فتحها الله ، واتخذ
المرية دارا ، وألف بها استقرار ، الى أن دعاه بها داعيه ، وقام فيها
ناعيه ، رحمه الله .

أنشدنا الحكيم أبو عبد الله بن حبينى المروى من شعره ، قال :
أخذته عمن ينشده ، فقلت : به الثقة .

ومن ذلك في وصف :

17 - الاديب أبى عبد الله بن فضيلة

(124 : أ) شيخ أخلاقه لينة ، ونفسه - كما قيل في نفس المومن -
هينة . ينظم الشعر عذبا مساقه ، محكما اتساقه . على فاقة ، وحالة
مالها من افاقة . أنشد المقام الكريم بظاهر بلده قصيدة استغرب منه
منزعا ، واستعذب - من مثله - مشرعا .

ومن ذلك في وصف :

18 - أبى القاسم الورشيدي

من أئمة أهل الزمام ، خليق برعى المتات والذمام ، ذو حظ كما
تفتح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام . كان ببلده - رحمه
الله - بدر اشراقه محاسبا ، درا في لجة الاغفال راسبا . صحيح

العمل يلبس الطروس من براعته أسنى الحلل . وله شعر لا بأس به ،
ولاخفاء بفضل مذهبه .

ومن ذلك في وصف :

19 - أبي الحجاج بن مرزوق الرندي

خير استبق الى داعى الفلاح استباقا ، وانتمى الى القوم الذين
هم فى الآخرة أطول أعناقا ، وان كانوا فى الدنيا أضيق (124 : ب) أرزاقا
مردد أذكار ، ومسبح أسحار ، وعامر مئذنة ومنار . كان ببلده مؤذنا
بجامعها ، وموقتا بأم صوامعها . ومعتبرا فيمن كان بها من السدنة .
وممن يشمله قوله : فكأنما قرب بدنه . وله لسان مخيف ، وشعر سخي .
توشح بحليته ، وجعله وسيلة كربته .

ومن ذلك في وصف :

20 - القاضى أبى بكر بن منظور

عظيم الهشة حسن اللقاء ، أغرب فى حسن المدارات من العنقاء .
استمر عمره بتسديد للحكم ، وصبر على حجج الصم والبكم . وأفرط
فى شدته وهزته ، وتنزل عن نخوة القضاء وعزته . وله سلف فى القضاء
عالى المراقب ، مزاحم للنجم الثاقب .

وقد أثبت من شعره ما تيسر اثباته . ونجم بروض هذا المجموع .

ومن ذلك في وصف :

21 - القاضى أبى جعفر بن برطال

قاض توارث كل جدالة ، لا عن كلاله . ومجمع فى العلم الحسب ،
بين الموروث والمكتسب ، أشرف بجيد معم فى (125 : أ) العشيرة
مخول ، وألقت اليه مقاليدها من منقول ومتأول . الى نزاهة لا تعرف

البيضاء ولا الصفراء ، وحلم لا تستهويه السعاية ولا يستفزها الاغواء .
ووقار يستخف الجبال الراسية ، ونظر يكشف الظلم والغاشية .

تولى قضاء الحضرة فأنفذ الاحكام وأمضاها ، وشام سيوف
العدالة وانتضاها ، ولبس أثواب النزاهة والانقباض فما نضاها ، وسلك
الطريق التي اختارها السلف وارتضاها . فاجتمعت الاهوال المفترقة
عليه ، وصرف الثناء أعنة اللسان اليه . ثم كر الى بلده ، واستقر خطيبا
بقرارة أهله وولده .

ومن ذلك في وصف :

22 — الفقيه أبى عامر بن عبد العظيم

منتهم الى معرفة ، متصف من الذكاء بأحسن صفة . أقرأ ببلده
علم اللسان ، وما حاد عن الاحسان . وعانى الشعر فنظم قوافيه ، وما
تكلف فيه . وعلى غزارة مادته (125 : ب) ووضوح جادته . فشعره
قليل البشاشة ، ذاهب الحشاشة ، وذو الاكثار كثير العثار ، وله سلف
يخوض في الحقايق ، وينتحل بعض الكلام الرايق .

ومن ذلك في وصف :

23 — الفقيه أبى عثمان الفلق

متسم بدين وعفة ، آو الى نفس بالغرض الادنى مستخفة . ممن
ينزع الى سلوك وريضة ، ويفيض في طريق القوم بعض افاضة .

ومن ذلك في وصف :

24 - أبى عثمان بن عثمان

ممن يتشوف الى المعارك والمقاتلات ، ويرتاح الى الحقايق
والمحالات . ويشتمل على نفس رفيقة ، ويسير من تعليم القرآن على
خير طريقة . ويعانى من الشعر ما يشهد بنبله ، ويستطرف من مثله .

ومن ذلك في وصف :

25 - المقرئ أبى القاسم الجرارى

مشمّر فى الطلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحذاق .
منتحل للعربية ، جاد فى احصاء خلافتها ، ومعاطاة سلافها . وربما شرست
فى المذاكرة أخلاقه ، اذا بهرجت أعلاقه ، (126 : أ) ونوزع تمسكه
بالحجة واعتلاقه ، ورحل الى المغرب ، فاستجدى - بالشعر - سلطاناه ،
ثم راجع أوطانه .

ومن ذلك في وصف :

26 - الفقيه الصوفى أبى جعفر العاشق

منتّم الى زهد ، باذل فى التماس الخير كل جهد . نظمّه لا يخلو من
حلاوة ، ومعانيه فى طريقه عليها بعض طلاوة .

ومن ذلك في وصف :

27 - أبي القاسم الساحلي

كاتب سجلات ، لا يساجل في صحة فصولها ، وتوقيع فروعها على أصولها . وكلما طلب بالنظم القريحة ، وأعمل الفكرة الصريحة ، مع اقلاله ، وعدم استعماله - أجابت ولبت ، وتنسبت ياها وهبت .

ومن ذلك في وصف :

28 - أبي القاسم عبد الله بن أبي طيح

عدل ، وممن له وقار وفضل . متسم بخير ، مشتمل بصفات مرضية ، يلم بالنظم في الطريقة الصوفية .

ومن ذلك في وصف :

29 - أبي الحسن علي بن عبد العزيز بن فليس

(126 : ب) ممن يركض مركب الطيش ، ويأوى بعد الجهد الى شطف العيش . منقبض عن الخلق ، سالك من التعيش بالتعليم أفضل الطرق . لا يعدم مع ذلك حملا عليه ، وتنسب بمواجهة اليه .

قصدني - وقد نبا به الوطن ، وضاق منه - للتغرب - العطن - يطلب مني شفاعاة الى بعض القضاة ممن كان يطلبه ، ويقبل فيه شهادة من يثابته .

ومن ذلك في وصف :

30 - أبى الحسن السالك الفرناطى

متسور على بيوت القريض ، فى الطويل من الكلام والعريض ،
جامع منها بين الصحيح والمريض . ممن أطاعته براعة الخط ، وسلمت
لقضب أقلامه رماح الخط . عانى كتابة الشروط الاول أمره ، ولحقته
محنة دهره . وهو - الآن - يشهد من الامور المخزنية فى بعض الالقاب ،
ويلازم دار الحساب .

ومن ذلك في وصف :

31 - الوزير أبى جعفر بن المدانى

صاحب طبع يحثه ، وشجو لا يزال يبيته وباطن متوقد ، (127 : أ)
وفكر لزوايا الفنون متعقد خدم فى كبار الاعمال . وقاد أزمة الاموال ،
وترقى فى البساط السلطانى رتبا رفيعة المنال . ولسلفه فى الخدم العملية
الاشتهار ، والبراعة الواضحة كما وضح النهار .

وشعره واضح السهولة ، جار على المآخذ المقبولة .

ومن ذلك في وصف :

32 - الحاج أبى عبد الله الشديـد

شاعر مجيد ، حولى الكلام . ولا يقصر فيه عن درجات الاعلام .
رحل الى الحجاز لأول أمره وجدة عمره . فطال بالبلاد المشرقيه ثواؤه ،

وعميت أنباؤه . وعلى هذا العمل وقفت على قصيدة بخطه ، عرضها نبيل ،
ومرعاها غير وبيل . تدل على نفس ونفس ، وإضاءة قبس .

ومن ذلك في وصف :

33 - أبي الحسن الرعيني

يخوض في الادب ، ويتمسك منه ببعض السبب ، وعن مثله واضح
المذهب ، وهو رجل صالح ومذهبه في الفضل (127 : ب) واضح .

ومن ذلك في وصف :

34 - « الفقيه الخير أبي عبد الله الشكاز الاندرشي »

لبق ذكي ، طبعه غير بكى ، سكن البادية اماما ، وأم بها أعواما ،
وله في ذلك مقامة ، حلت من الظرف مقاما ، واستوفت من الذكاء
أقساماً .

ومن ذلك في وصف :

35 - العدل أبي عبد الله القطان

ممن نبغ ونجب ، وحق له البر بذاته ووجب . تجلى بوقار ،
وشعشع للادب كاس عقار ، الا أنه اخترم في اقتبال ، وأصيب للاجل
بنبال .

ومن ذلك في وصف :

36 - الوزير أبي عبد الله بن سلبطور

مجموع شعر وخط ، وذكاء عن درجة الظرفاء غير منحط ، الى
مجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحى والميت (128 : أ) نشأ في حجر

الشرف والنعمة ، محفوفاً بالمالية الجمّة . فلما عقل عن ذاته ، وترعرع بين لذاته ، ركض خيول لذاته ، فلم يدع منها ربعا الا أقفره ، ولا عقارا الا عقره ، حتى حط بساحلها ، واستولى بسفر الانفاق على جميع مراحلها ، الا أنه خلص بنفس طيبة وسراوة سماؤها صيبة ، وتمتع ما شاء من زير ويم ، وأنس لا يعطى القيادة لهم ، وفي عفو الله سعة ، وليس مع التوكل عليه صعه .

ومن ذلك في وصف :

37 - العدل أبي عبد الله بن مشتمل البلياني

ممن يعد ويحسب ، وينمى الى الفضل وينسب ، أدواته بارعة ، وخصاله فارعة ، من خط طريف ، وأدب وتأليف .

ومن ذلك في وصف :

38 - المؤلف أيضا رضى الله عنه

سلمان * انتسابي ، وبالمعارف الادبية اكتسابي ، والى العلوم قد فحشا ارتياحي ، وفي حلبة أرباب النظر مغدای ومراحي (128 : ب) على نهاية من ترف النشأة ، وغر البداية ، الى أن اشتملت على الدولة النصرية اشتمالة ، ونظمتني بين بدورها الكوامل هلالا ، فسموت في رتب اعتنائها . حالا فحالا ، وتأثلت ما شئت جاها ومالا ، وجعلت مشاركة الخلق ثمالا . فأنا اليوم ولله ولها الحمد عطارد فلکها ، وزبرقان حلکها ، ودليل مسلكها . أقوم بين يدي سريرها والوفود قعود ، وأجلوا الغيم عن شمسها والجو بروق ورعود ، وأبادر نداءها ان كانت هيعة ، وأمسك منها اليمين ان همت بتجديد بيعة ، فمن اختال في حلل هذا التشريف

* سلمان : بلدة في اليمن ، نزلت منها أسرة المؤلف ، حيث استقرت بالاندلس .

غنى عن التعريف ، وأما شعري في امتداحها فمثل سائر ، وطائر فى
الآفاق ميمون الطائر ، وأما كتابتي عنها فأبهى من وجوه البشائر ، وأحلى
من الشهد فى يد الشائر . نستغفر الله ، فهذا مقام من نأى عن جنسه ،
ورضى عن نفسه ، كم دون ذلك من تقصير يبدو لعين نافذ بصير ،
ستر الله عيوبنا وبلغنا (129 : أ) من كمال السعادة الابدية مطلوبنا
بمنه .

ومن ذلك فى وصف :

39 - أبى عبد الله بن سلمة الكاتب

فارس خصال حميدة ، ورائق الى هذه الاصابة بسهام سديدة ،
فان جلى فى المهارق احسانه ، أو أعمل فى الرقاع بيانه ، حسد عطار
ظرفه ، وصدق المشتري الى تلك البضاعة طرفه .
دعى الى الكتابة فاقتعد مطاها ، وأدار كئوسها وعاطاها ، ولم
يزل يجيل جياده فى كل ميدان ، ويبدى من براعته ما ليس لسواه بمثله
يدان ، حتى تأود دوحه ، وتعطر روحه . ثم رمل بعدما ثوى ، وأحدث
عقب ما نوى ، وجنح الى خطة الاشراف ، فحمل وما أجمل ، وأغفل
خطة الحزم وما تأمل ، وأهمل سنن الاشراف فيما أهمل . وألجأ
ضيق عطنه الى فراق وطنه .
وينتحل شعرا يسطع أرجه ، ويسمو منعرجه .
ومن ذلك فى وصف :

40 - أبى بكر بن مقاتل *

خلف وبقية ، ونابغة مالقية ، ومغربى الوطن أخلاقه (129 : ب)
مشرقية . أزمع الرحيل الى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المفرق

* سبق أن ترجم له المؤلف فى القسم الاول (40) مع خلاف لا يكاد يذكر فى بعض
التعبيرات .

فلما توسطت السفينة اللجج ، وقارعت الثبج ، هال عليها البحر فسقاها
كأس الحمام ، وأولدها قبل التمام . وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ،
وانضم على نوره سوادها ، جملة من الطلبة والادباء ، وأبناء السراة
الحسباء . أصبح كل منهم مطيعا لداعى الردى وسميعا ، وأحبوا فرادى
وماتوا جميعا . فملأوا الضلوع حزنا ، وأرسلوا العبرات عليهم مزنا .
وكان البحر لما طمس سبل خلاصهم وسدها ، وأهال هضبة سفينتهم
وهدها ، غار لدررهم النفيسة فاستردها .

والفقيه أبو بكر — مع اكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره — لم أظفر
من أدبه الا بالقليل التافه ، بعد وداعه وانصرافه .

ومن ذلك فى وصف :

41 — أبى عبد الله الشريشى

طالب نبيل ، لا يلتبس من مذاهبه سبيل . أبوه وراق هذه الاقطار ،
التي طار اشتهاها كل المطار ، فقلما نجد بليدا (130 : أ) مذكورا ، بل
بيتا معمورا الا وبه من خطه شىء معروف ، ان لم تلف منه صفوف أو
ألوف . ونشأ ابنه طالبا ذكيا . وفطنا لودعيا ، وفاضلا سريا .

ومن ذلك فى وصف :

42 — أبى عبد الله اللؤلؤة

فاضل منقبض ، مضطلع بحبل الرواية منتهض . رحل الى الحجاز
الشريف ، وهو اللؤلؤة لفظا ومعنى . وتجمل فى العناية بالرواية وتعنى ،
وكلف بها كلف قيس بلبنى ، حتى هصر منها كل المجنى ، وظهرت عليه
بركة مقصدها الاسنى . وآب الى بلاده . وهو خلق جديد ، وظل عفافه

عريض مديد ، فاجتلب من الفوائد الشرقية ، والطرف الماثورة عمن لقي
من البقية ، ما أوجب له نيل المزية ، ونبل الرحلة الحجازية .

ولم يلبث أن هلك بحصن قمارش بلد أهله ، وخبت أنوار فضله ،
رحمه الله .

من ذلك في وصف :

43 — أبى عبد الله بن خاتمة

حسن الشيمة ظريفها . مقبول النزاعة طريفها . لبيته في
(130 : ب) خدام الجبابة شهرة ذائعة ، ونهاية شائعة ، فهم فرسان
الازمة ، وقوام تلك الامور المهمة . حاد عن طريققتهم ، ومال عن مرافقة
فريقهم ، وجنح الى العدالة ، وأنف من الادالة . فتحلى بالخيرية
وتوشح ، وترقى بسببها وترشح .

من ذلك في وصف :

44 — أبى يحيى بن داود

متحل من الحياء والعفاف ، بأحسن الحلى والاوصاف ، مستظل من
فضل سلفه بروح داني القطاف . أبوه — رحمه الله — شيخ العمال ،
الذى لا يدافع عن منقبة جلييلة ، ولا يزاحم في باب ماثرة جميلة ، وجاء
ولده هذا جاريا على عقبه ، سالكا على السبيل الالىق به ، لولا أن الحمام
اخترمه سريعا ، وأذبل منه غصنا مريعا .

من ذلك في وصف :

45 — أبى عبد الله بن البقاء

هشوش مقبول ، متخلق حمول ، ووعدته بالمشاركة مفعول . تعرض
بالباب العلى واقتحم ، وتقدم فما أحجم ، وأنشد قصيدة (131 : أ)
أحكم أيرادها بصوت شج ، ونعمة لباس حسنهما غير رث ولا منهج .
فوقع عليه القبول ، وتسنى له من النعمة المأمول . واتصل له ذلك
فصحلت حاله ، ونجحت آماله . وعلى كونه لو كان شعرا لكان من شواهد
بيت الخفيف ، أو مثلا لكان حجة الاهوج على الحصيف . فهو — من أهل
الذكاء — معدود ، وله — فى السراوة والمشاركة — مذهب محمود .

من ذلك في وصف :

36 — أبى عبد الله الطشكرى

كهام الحد ، ملقى عند العد . جهد أن يلحق فقصر باعه ، ونبت
طباعه ، ولا يخلو — مع ذلك — من نبل وانقباض ، وذكاء فى بعض
أغراض .

من ذلك في وصف :

47 — أبى عبد الله بن مشرف

ممن يمت بحسب ، ويرجع الى نظم وأدب . وينتحل — على
ضعف الادوات — شعر رائقا ، وبالطلبة الغر لائقا .

من ذلك في وصف :

48 — أبى جعفر أحمد بن رضوان بن
عبد العظيم

(131 : ب) شاعر طبع ، وعامر حى — من الادب — وربع . حجة
من حجج الغزائر ، فى العالم الحائر . يتدفق تدفق الفرات ، ويتبع
الفرات ، ويتتبع المعانى كأنما يطلبها بالقرات ، فيأتى بكل عجيبة ،
وينتج البديع بين طبع فحل وفكرة-نجيبة ، ويتلقى داعى البيان بنفس
سميعة مجيبة ، من غير اقتناء لادواته ، ولا اعتناء بذاته . الا أنه يلبس
أرباب الطلب ، فربما حصل مما يريد على الارب .

من ذلك في وصف :

49 — أبى عبد الله بن هانى

جملة حسب ووقار ، وبراعة تمد اليها المهارق كف افتقار . نظمت
الدولة اليوسفية فى سمط كتابها ، وأظلمت بظل جنابها ، وطلب لهذا العهد
نفسه بالادب ، وتمسك منه بالسبب . فصدر عنه من ذلك ما يستظرف
على البداية ، ويدل — ان استتب — على فضل النهاية .

من ذلك في وصف :

50 — الكاتب أبى عمرو بن زكرياء

يتوسل فى الكتابة ، ويكافح منها بحدين ، ويستند من الجهتين
اللوشية والمرابطية الى مجدين . وأما أبوه (132 : أ) — رحمه الله —

فحظه زين الزين ، وطرفة النفس وقرة العين ، فان نجب ونهض ، فهو
عرق نبض ، ، وان جناح الى قصور ، فغير معذور .

من ذلك في وصف :

51 - الحاج أبى العباس الفراق

لسان بالشعر يهتف ، ويد بالكدية تنتف لا يبالي ألبس من القول
جديدا أورثا ، أو كان سميننا من الشعر أو غثا ، أو نظم بسيطا أو مجتثا .
انما مهمته في قافية حاضرة ، وخواطر منه خاطرة ، وسماء نوال ماطرة .
ومع ذلك فخفيف الجانب ، سهل المذانب . يخوض من فروع الفقه لجه .
ويوضح منها حجة .

مدح بهذه الابواب كذا ، وتعرض وتصدى ، وكتب عن الامراء فما
حاد عن السنن الحسن ولا تعدى .

من ذلك في وصف :

52 - الكاتب أبى العباس المليانى

صاحب العلامة بالمغرب ، الكاتب الفاتك ، والصارم الباتر . أى
اضطراب في وقار ، واهتضام للعظائم واحتقار ، وغنى في افتقار ، وتجهم
تحتة أنس العقار .

اتخذته ملك المغرب (132 : ب) صاحب علامته ، وتوجه تاج
كرامته . وكان يطالب جملة من أشياخ مراکش بثار عمه ، ويطوقهم
دمه بزعمه ، ويقتصر على الانتصار منهم بنات همه ، اذ سعوا به حتى
اعتقل ، ثم جدوا في أمره حتى قتل . فترصد كتابا الى مراکش يتضمن

أمرا جزما ، ويشتمل من أمور الملك عزما ، جعل فيه الامر بضرب رقابهم ، وسبى أسبابهم ، ولما أكد على حامله في العمل ، وضايقه في تقدير الاجل ، تأنى حتى علم أنه وصل ، وأن غرضه قد حصل ، وفر الى تلمسان وهي بحال حصارها ، واتصل بأنصارها ، حالا بين أنوفها وأبصارها . وتعجب من قراره ، وسوء اغتراره ، ورجمت الظنون فى آثاره . ثم اتصلت الاخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، فتركها شنيعة على الايام ، وعارا فى الاقاليم على حملة الاقلام . وأقام بتلمسان الى أن حل مخنق حصرها وأزيل هميان الضيقة عن حصرها ، فلحق بالاندلس ولم يعدم برا ورعيا (123 : أ) مستمرا ، حتى أتاه حمامه ، وانصرفت أيامه .

من ذلك فى وصف :

53 - أبى اسحق بن سعيد

مقدور عليه ، محفوف بالحاجة من خلفه ومن بين يديه . من رجل يهتف باضطلاع العلوم ، ويهدر بالشعر هدر المحموم ، ثقل حتى خف ، وكثف حتى شف . الا أنه لا ينقبض من بسط ، ولا يلقى جعد المزاج الا بخلف سبط . ولم يكن خلوا من فائدة يلقيها ، وطرفة ينتقيها ، وأفادته الرحلة الحجازية لقاء أعلام ، ومصابيح اظلام ، كان يطرف بمحاسنهم المجالس ، ويفصح بأنوارهم النهار الشامس . وله سلف صالح ، وأدب ضعفه واضح .

من ذلك فى وصف :

54 - أبى العباس أحمد بن عبد الحق

قدم الاندلس عربى المرمى ، بادسى المنتمى ، يتعاطى الادب والتدوين ، ويستترفد الامراء والسلاطين . وقصدنى لاريش جناح أمله .

وأكون ذريعة الى نجاح عمله ، ورفع لى (133 : ب) كتابا فى السياسة
لا يخلو من نبل ، وسلوك طرق للانفاق وسبل .

ومن ذلك فى وصف :

55 — الشريف أبى عبد الله العمرانى

كريم الانتماء مستظل بأغصان الشجرة السماء ، من رجل سليم
الضمير ، ذى باطن أصفى من الماء النмир .

له فى الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله ، ومضاء نصوله . وقد
أثبت من شعره ما يتضح — فى البلاغة — سبيله . ويشهد — بعفته —
صهيله .

ومن ذلك فى وصف :

56 — أبى عبد الله بن جابر الكفيف

محسوب فى طلبتها الجلة ، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الالهة .
رحل الى المشرق وقد أصيب ببصره ، واستهان — فى جنب الاستفادة —
بمشقة سفره . وشعره كثير .

ومن ذلك فى وصف :

57 — الاديب أبى اسحاق بن الحاج

من أدباء المؤدبين ، ونبلأ المتسرعين الى النظم المنتدين . لو
أدركه الجاحظ فى أوانه لكان طرفه من طرف ديوانه ، غريب فى أحكامه ،

معتن بمدد وقصره ورويه (134 : أ) واشمامه . جهير النعمة عند رد سلامه ، محسن الظن بما يصدر عنه من كلامه وشعره من النمط الذى يؤنس فى الاسحار ، ويجرى من الفكاهة على مضمار .

ومن ذلك فى وصف :

58 - « الاديب ابن حرب الله »

راقم راشي ، رقيق الجوانب والحواشي . تزهى بخطه المهارق والطروس ، وتتجلى فى حلى ابداعه كما تجلت العروس . الى خلق كثير التجمل ، ونفس عظيمة التحمل . وود سهل الجانب عذب المشارب .
لما قضيت الوقية العظمى بظاهر طريف ، - أقال الله عثارها ، وعجل آثارها - فرق به موج ذلك البحر ، وأفلت افلات الهدى المقرب للنحر . ورمى به الى رندة الفرار وقد عرى من أثوابه كما عرى العرار . فتعرف للحين بأديبها المفلق ، وبارقها المتألق ، أبى الحجاج المتشافري * فراقه بشر لقائه ، ونهل - على الظماء - فى سقائه . وكانت بينهما مخاطبات أنشدنيها بعد اياه ، وأخبرني أنه نسي بها (134 : ب) ما كان من ذهاب زاده ، وسلب ثيابه .

ومن ذلك فى وصف :

59 - أحمد الفضلاء

فلان - وان كان أشد الناس عناية بعمامة تلوى ، وطيلسان يسوى وتاج واكليل ، وزى جميل ، وكم ينال الارض بزلومة فيل - فجاهد فى

* لقد سبق أن ترجم له المؤلف .

عدم الخنا صدره ، وجانبه — مع العز — شكره ، ونادرتة على ذلك وعصفه
فجة . لو دخل كورة النحل ، أو سكن قرية النمل ، مستأثرا من أميرها
بتقريب ، أو حاصلا من رئيسها على حظ غريب ، لتلون من أخيه ، وشمخ
بأنفه على فصيلته التي تؤويه ، مسكرا من شراب لمع السراب ، واقتتاب
بروز الحظ المنزور . فاذا أدال الصحو من الشملة ، أو عدم قبول النملة ،
أو طوى الديوان ، تمنع بأسه الاخوان . فما أراه باستكتاب القائل من
أمر ريح الجنوب بالهبوب . ومن أذن للغمام الهدام ، ومن الذى ينظر بعينه
الزرق نوار الكتان ! ! ؟

رفقا بنفسك — سيدى — رفقا
فالظن أن تبرأ أو أن تشقى
أما مزاجها فهو معتدل
لكن أظن خيالك أستسقى

ومع ذلك فمحاضرتة لا تحصر أجناس أبيه ، وزهر لا يمل منتشقه
ومجتليه ، الى طلعة لا تقتحم ولا تزدري ، وأبهة ما كان حديثها يفترى .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها ! ؟
كفى المرء فخرا أن تعد معاييه

الباب الثالث

كتب الزواجر والوعظ

الرسالة الأولى

ومن ذلك في مخاطبة ابن مرزوق :

سيدي ، الذي يده البيضاء تذهب بشهرتها المكافآت ، ولم تختلف في مدحها الأفعال ولا تغيرت في حمدها الصفات ، ولا تزال تعترف بها العظام الرفات . أطلقك الله من أسر كل الكون ، كما أطلقك من أسر بعضه ، وزهدك في سمائه وفي أرضه ، وحقر الحظ في عين بصيرتك بما يحملك على رفضه .

(1) هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق ، الملقب بشمس الدين والمعروف بالخطيب . ولد بتلمسان عام 710 هـ ، وتربى بها ، ثم صحبه أبوه إلى الحج ، وأثناء هذه الرحلة تسنى له الجلوس إلى نخبة من علماء المشرق ، فأخذ عنهم دروس الشريعة والأدب واللغة ، ثم عاد عام 733 هـ ليجد السلطان أبا الحسن محاصرا لتلمسان حتى استولى عليها ، فتقرب إليه وفي نفسه طموح ، فأسند إليه إمامة المسجد الذي أنشأ هناك ، ولم يترك ابن مرزوق مناسبة عند السلطان إلا واغتنم فرصة مدحه ، فتوطدت علاقته به ، حتى أضحي من خواصه المقربين ، ولعل من مظاهر ذلك أنه رافقه في « معركة طريف » بالاندلس (جمادى الأولى 741 هـ / 30 أكتوبر 1340 م) ثم أوفده على رأس سفارة إلى الانفوش الحادي عشر ملك قشتالة لإبرام الصلح ، بعد الهزيمة التي منى بها الجيش المغربي والاندلسي اثر تلك المعركة . وبقي ابن مرزوق أثرا هكذا حتى توفي أبو الحسن المريني ، وتولى بعده ابنه أبو عنان ، ولكن ابن مرزوق لم يصادف عنده سابق مكانته عند والده ، فانقطع للعبادة بعض الوقت ، إلا أن طموحه دفعه إلى الاتصال ببني عبد الواد بغية التزلف إليهم ، بيد أن هؤلاء لم ينسوا مواقفه السابقة ضدهم عند السلطان أبي الحسن ، وهناك اتصل بلسان الدين ابن الخطيب وزير دولة بني نصر يومئذ ، فأعانه على أمره ، واستصدر له ظهير تعيينه خطيبا للمسجد الأعظم بغرناطة . هذا ، وقد استدعاه السلطان أبو عنان المريني عام 745 هـ بعد استرجاع هذا لتلمسان ، وصار في طليعة بلاطه طيلة أربع سنوات ، حتى أوفده سفيرا إلى السلطان الحفصي ابن يحيى ليخطب له منه ابنته ، ولكن التوفيق لم يحالف ابن مرزوق في هذه المهمة ، فكان نصيبه السجن بعد عودته ، إذ ترامي إلى سمع أبي عنان أن هذا الفشل يرجع إلى عدم استغلال سفيره لنفوذه المعروف لدى الحفصيين ، وظل بالسجن قرابة سنتين ، ثم أفرج عنه ليعاود سابق مغامراته السياسية عند السلطان ابن سالم المريني ، وتمكن بدهائه من أن يصبح من

اتصل بى الخبر السار من تركك لشأنك ، وأجناء الله اياك احسانك
وانجياب ظلام الشدة (135 : ب) الحالك عن أفق حالك . فكفوت ارتياحا
لانتشاق رضا الله الطيب الارج ، واستعبرت لتضاؤل الشدة بين يدي
الفرج ، لا بسوى ذلك من رضا مخلوق يؤمر فيأتمر ، ويدعوه القضاء
فيأتمر ، انما هو غيء وظل ليس له من الامر شئ .

ونسأله — جل وتعالى — أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيتها ، وأول
معارج نفسك التى تقربها من الحق وتدنيها . وكأئننى — والله — أحس بثقل
هذه الدعوة على سمعك ومضادتها ، ولا حول ولا قوة الا بالله لطيفك .
وأنا أنافرك الى العقل الذى هو قسطاس الله فى عالم الانسان ، والآلة
لبث العدل والاحسان ، والملك الذى يبين عنه ترجمان اللسان . فأقول :

ليت شعرى ما الذى غبط سيدي بالدنيا وان بلغ من زبرجها (2)
الرتبة الاولى . وأفرض المثال بحال اقبالها ، ووصل حبالها ، وخشوع
جبالها ، وضراعة سبالها ! ! ألتوقع المكروه صباح مساء ، وارتقاب الحوالة
التى تزيل من النعم الباساء ، لزوم (136 : أ) المنافسة التى تعادى

كبار مستشاريه ورفاقه ، واستمر هكذا فترة لم تطل ، فقد استولى الوزير
أبو عبد الله على مقاليد الحكم ، وخلع السلطان أبا سالم ، وبالتالي قبض على
ابن مرزوق ، وألقى به فى السجن .

وتبعاً لما تضمنته هذه النبذة من حياة هذا الرجل ، ومدى الصعاب والعقبات
التى صادفت حياته — وهو المعروف بثقافته وعلمه ، الى جانب عدم قناعته بما
يسره الله اليه — يعقد كثير من المؤرخين والنقاد مقارنة بينه وبين صديقه
ومعاصره لسان الدين ابن الخطيب الذى يكاد يتفق معه فى تلك الظروف ، وهذه
الاتجاهات النفسية ، وربما فسرنا الصلة التى كانت قائمة بين الرجلين على
هذا الاساس ، ولعل المتصفح للرسالة التى نقدمها الآن يرى من فحواها
ملامح الاحوال التى كان يجتازها ابن مرزوق ، والتى رأى فيها ابن الخطيب
صورة من سابق تجاربه ، وخلاصة مواقفه السياسية فى كتف هذا أو ذاك ،
فأخذ يمحض النصيح لصديقه من واقع تجاربه فى هذه الميادين .

(2) الزبرج . بكسر الزاى وسكون الباء . معناه الزينة من وشم أو نحوه ،
والجمع منه زبارج وفعله زبرج بزنة فعل ، بمعنى حسن الشئ وزينه .

الاشراف والرؤساء ؟ الترتيب العدل حتى على التقصير فى الكتب ، وطمعينة
جار الجنب ، وولوع الصديق باحصاء الذنب ؟

النسبة وقائع الدولة اليك ، وأنت فى عرى ؟

ألاستهدافك للمضار التى تنتجها غيرة الفروج ، والاحقاد التى
تضطبنها (3) ركة السروج ، وسرحة المروج ، ونجوم السماء ذات
البروج ؟

التقيدك لتقصير ، فما ضاقت عنه طاقتك ، وصحت اليه فاقتك ، من
حاجة لا يقتضى قضاءها الوجود ، ولا يكيفها الركوع للملك والسجود ؟

ألقطع الزمان بين سلطان بعبد ، وأفكار للغيوب تكبد ، وعجاية شر
تلبد ، ولقبوحة تخلد وتؤبد ؟

الوزير يصانع ويدارى ، وذى حجة صحيحة يجادل فى مرضاة
السلطان ويمارى ، وعورة لا توارى ؟

المباكرة كل عاجب حاسد ، وعدو مستاسد ، وسوق — للانصاف
والشفقة — كاسد ، وحال فاسد ؟

العقود تتزاحم بسدتك ، مكلفة للنفير (136 : ب) ما فى طوقك ؟

فان لم يقع الاسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟

الجثاء ببابك لا يقطعون زمن رجوعك وايابك ، الا بقبيح اغتيابك ،
فالتصرفات تمقت ، والقواطع النجومية توقت . والافعى تبث ، والسعايات
تحت ، والمساجد يشتكى فيها البث . يعتقدون أن السلطان فى يدك بمنزلة
الحمار المدبور ، واليتيم المحجور ، والامير المأمور ، ليس له سهوة ولا

3 تضطبنها . تحملها ما بين الكشح والابط ، وفعله ضبن بفتحيتين ، بمعنى حمله
موق الضبن ، والضبن بتشديد الضاد مع الكسر وسكون الباء ما بين الكشح
والابط كما ذكرنا ، وتبعاً لهذا يقال فلان فى ضبن فلان ، أى فى كنفه .

غضب ، ولا أمل في الملك ولا أرب ، ولا موجدة لاحد كامنة ، والشر ضامنة !!
وليس في نفسه عن أى نفرة ، ولا بازاء ما لا يقبله نزوة أو طفرة !!
انما هو جارحة لصيدك ، وعاث في قيدك ، ودالة لتصرف كيدك ،
وأنت علة حيفه (1) ومسلط سيفه .

أشرار يسملون عيون الناس (2) باسمك ، ثم يمزقون بالغيبة
فزق جسمك . قد تنخلهم الوجود اخبت ما فيه ، واختارهم السفية
فالسفيه ؟ اذا الخير يستره الله عن الدول أو يخفيه ، ويقتنه بالقليل
فيكفيه ، فهم يمتاحون بك (137 : أ) ويولونك الملامة ، ويفتحون عليك
القول ، ويسدون طرق السلامة . وليس لك — في اثناء هذه — الا ما لا
يعوزك مع ارتفاعه ، ولا يفوتك مع انقشاعه ، وذهاب صداعه — من
غداء يشبع ، وثوب يقطع ، وفراش ينيم وخدم يقعد ويقيم !!

وما الفائدة في فرش تحتها جمر الغضا ؟ ومال من ورائه سوء
القضا ؟ وجاه يحلق عليه سيف منتضى ؟ واذا بلغت النفس الى
الالتذاذ بما تملك ، واللجاج حول المسفك ، الذى تعلم أنها فيه تهلك —
فكيف تنسب الى نبل ، أو تسير من السعادة في سبل !! وان وجدت في
القعود بمجلس التحية ، بعض الاريحية فليت شعري أى شىء زادها ،
أو معنى أفادها ، الا مباكرة وجه الحاسد ، وذى القلب الفاسد ، ومواجهة
العدو المستأسد !! وشعرت ببعض الايناس ، فى الكوب بين الناس ،
هل التذت الا بحلم كاذب أو جذبها غير الغرور مجاذب ؟

انما راكبك من يحدق الى الحلبة والبزة ، (137 : ب) ويستظل
مدة العزة ، ويرتاب اذا حدثت بخبرك ، ويتبع بالنقد والتجسس مواقع

(1) حيفه : ظلمه .

(2) يسملون عيون الناس . يفتنونها ، والسماح هو من يقوم بهذا العمل .
والتعبير اذن على سبيل المجاز ، والقصد ان هؤلاء الاشرار يرتكبون أفعالهم
ضد الآخرين باسم المخاطب هنا .

نظرك ، ويمنعك من مسايرة أنيسك ، ويحتال على فراغ كيسك ، ويضمّر الشر لك ولرئيسك . وأى راحة لمن لا يباشر قصده ، ويسير — متى شاء — وحده ! ولو صح — فى هذه الحال لله حظ وهبه زهيدا ، أو عين الرشد عملا حميدا ، لساغ الصاب ، وحفت الاوصاب ، وسهل المصاب . لكن الوقت أشغل ، والفكر أوغل ، والزمن قد عمرته الحصص الوهمية ، واستنفدت منه الكمية . أما ليله ففكرة ونوم ، وعتب يجز الضرائر ، وأما يومه فتدبير ، وتقبيل ودبير ، وأمور يعيا بها تبير ، ولفظ فيه حكيم كبير وبلاء مبير (1) ، وأنا — بمثل ذلك خبير .

والله يا سيدى — ومن فلق الحب ، وأخرج الاب (2) ، وذرا ما مشى وما دب ، وهدأ وأكب ، وسمى نفسه الرب — لو تعلق المال الذى يجره هذا الكدح ، يرى سقطه هذا القدح ، بأذيال الكواكب ، وزاحمت البدر بدره (138 : أ) بالمناكب . لا رame عقب ، ولا خلص فيه محتقب ، ولا فاز به سافر ولا منتقب ، والشاهد الدول ، المشائيم الاول . فأين الرباع المنتقا ؟ وأين الحوائط المغترسات ؟ وأين الذخائر المختلصات وأين الودائع المؤملة ، والامانات المحملة ؟

(تكفل) الله بتثبيرها ، وادناء نار التبار من دنانيرها ، فقلما تلقى أعقابهم الاعرى الظهور ، مترفقين بجرايات الشهور ، متعللين بالهباء المنثور ، يطردون من الابواب التى حجب عندها آباؤهم ، وعرف منها آباؤهم ، وثم من مقاصيرها عنبرهم وكباؤهم ، لم تسامحهم الايام الا فى ارث محرره ، والا حلال مقرره ، وربما محقه الحرام ، وتعدى منه المرام . هذه — أعزك الله — حال قبولها المرغوب فيه ، وما لها مع الترفيه ، وعلى فرض أن يستوفى العمر فى العز مستوفيه . وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم ، وحوت يغى يتبلغ ويلتقم .

(1) مبير . مهلك ، ويقولون عن الدنيا « دار البوار » أى الهلاك .

(2) الاب . معناه هنا ما كان رطبا أو يابساً من العشب .

وطبق يحجب الهوا ، وتطيل ترب الثوى ، وثعبان قيد بعض
الساق ، (138 : ب) وشؤبوب (1) عذاب ، يمرق الأبخار الرفاق ،
وغل يديها الواقب الغاسق ، ويجرعه العدو الفاسق . فصرف السوق ،
وسلخته المعتادة الطروق ، مع الافول والشروق .

فهل فى شىء من هذا مغتبط لنفس حرة ، أو ما يساوى جرعة
حال مرة ؟ ؟

واحسرتنا للاحلام ضلت ، وللاقلام زلت ! ! ويالها من مصيبة جلت !
ولسیدی أن يقول : حكمت على باستثقال الموعظة واستجفائها ،
ومراودة الدنيا بين خلانها واكفائها وتناسى عدم وفائها .

فاقول : الطبيب بالعلل أدري ، والشفيق — بسوء الظن — مغرى .
وكيف وأنا أقف على المساء بخطيد سيدى من مطارح الاعتقال ، ومثاقف
النوب الثقال — وخلوات الاستعداد ، للقاء الخطوب الشداد (وحافات)
الاسنة الحداد وحيث يجمل بمثله الا يصرف — فى غير الخضوع لله —
بنانا ، ولا يثنى — لمخلوق — عنانا . وأتعرف أنها قد ملت الجو والدو ،
وقصدت الجماد والبو ؟ تقتحم أكف أولى الشمات ، (139 : أ) وحفظة
المذمات ، وعوان النوب الملمات ، زيادة فى الشقاء ، وقصدا حريا من
الاختيار والانتقاء ، مشتملة من التجاوز على أغرب من العنقاء (2) ، ومن
النفاق على أشهر من البلغاء ؟ فهذا يوصف بالامامة ، وهذا ينسب فى
الجود الى كعب ابن أمامة ، وهذا يجعل من أهل الكرامة ، وهذا يكلف

(1) الشؤبوب . فعله « شأب » مثلث الفتحات ، والجمع منه « شآبيب » ، وهى
لغة بعدة معان منها . الدفعة من المطر ، وشدة حر الشمس ، وحد كل شىء
وشدة اندفاع كل شىء وأول ما يظهر من الحسن ، ولعل قصد المؤلف هنا هو .
الحد المتدفع بدليل السياق والوصف له .

(2) العنقاء . تطلق على طائر مجهول تخيله العرب ، يقول شاعرهم :
نبئت ان المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفى

الدعاء وليس من أهله ، وهذا يطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله ،
الى ما احفظنى — والله — من البحث عن السموم ، وكتب النجوم ،
والمذموم من المعلوم ؟ هلا كان من ينظر فى ذلك قد قوطع بتاتا ، واعتقد أن
الله قد جعل من الخير والشر ميقاتا ، وأنا لا أملك موتا ولا نشورا ولا
حياة ، وإن اللوح قد حصر الأشياء محوا وإثباتا . فكيف نرجو لما منع
منالا ، أو نستطيع مما قدر — افلاتا ؟ ؟ ! !

أفيدونا ما يرجح العقيدة المتقررة نتحول اليه ، وبينوا لنا الحق
نعول عليه ، الله الله يا سيدى فى النفس المرشحة ، والذات المحلاة
بالفضائل الموشحة ، والسلف الشهير (139 : ب) الخير ، والعمر
المشرف على المرحلة بعد حث السير ؟ ودع الدنيا لاهلها ، فما أوكس
خطوهم ! وأخس لحوظهم ! واقل متاعهم ! وأعجل اسراعهم ! وأكثر
عناءهم ! واقصر اناءهم !

ما ثم الا ما رأيت ، وربما تعيى السلامة
والناس اما حائر أو حائد يشكو ظلامه
واذا أردت العز لا تترى بنى الدنيا قلامه
والله ما احتقب الحريص سوى الذنوب أو الملامه
هل ثم شك فى المعاد الحق أو يوم القيامة
قولوا لنا ما عندكم — بالله — أهل الخطابة واللامه

وان رميت بأحجارى ، وأوجزت المر من أشجارى ، فوالله ما
تلبست اليوم بشيء قديم ولا حديث ، ولا استأثرت بطيب فضلا عن
خبِيث . وما أنا الا عابر سبيل (1) وهاجر مرعى وبيل ، ومرتقب وعد

(1) التعبير جاء اقتباسا من الحديث النبوى الشريف : « كن فى الدنيا كأنك غريب ،
أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور » تزهيدا فى الدنيا وتحذيرا منها ..

أقدر فيه الانجاز . وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز . قد فررت من الدنيا كما نفر من الاسد ، وحاولت قطع المداخلة حتى (140 : أ) بين روحى والجسد . فلم أبق عادة الا قطعتها ، ولا جنة للصبر الا ادرعتها ، أما اللباس فالصوف ، وأما الزهد فى ما بايدى الخلق فمعروف ، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف . والله لو علمت أن حالى هذه تتصل ، وعراها لا تتفصل ، وترتيبى هذا يدوم ، ولا يجرنى الوعد المحتوم ، والوقت المعلوم — لمن أشفى ، وحسبى الله وكفى .

ومع هذا يا سيدى ، فالموعظة تتلقى من لسان الوجود ، والحكمة ضالة المؤمن ببذل المجهود ، ويأخذها — من غير اعتبار بمحلها — المذموم ولا المحمود . ولقد اعملت نظرى فيما يكافى عنى بعض يدك ، أو ينتهى فى الفضل الى امدك ، فلم أر فى الدنيا لك كفاء ، لو كنت صاحب دنيا ، ووجدت بذل النفس قليلا من غير شرط ولا ثنيا ، لما الهمنى الله — جل جلاله — الى مخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة فى قالب الخفا ، ولا يعرف قارورة الدنيا معرفة مثلى من المتدنين بها المنهمكين ، وينظر أغوارها الفالح بعق اليقين ، (140 : ب) ويعلم أنها المومسة التى حسنها زور ، وعاشقها مغرور ، وسرورها شرور . تبين لى أنى قد كافأت صنيعتك المتقدمة ، وخرجت عن عهدتك المترمة .

وأمحضت لك النصيح الذى يعز — بعز الله — ذاتك، وبطبيب حياتك، ويحيى مواتك ، ويريح جوارحك من الوصب، وقلبك من النصب، ويحقر الدنيا وأهلها فى عينيك اذا اعتبرت وبلاشى عظائمها لديك اذا اختبرت ، كل من يقع عليه عينك حقير قليل وفقير ذليل لا يفضلك بشيء الا باقتفاء رشد ، أو ترك غى ، أثوابه النبيلة يجردها الغاسل ، وعروته يفصلها الفاصل ، وما له الحاضر الحاصل ، يعيث فيه الحسام الناصل . والله ما تعين للسلف ، ولا يصير المجموع الا الى التلف ، ولا صح من الهياط

والمياط (1) . والصياح والعياط ، وجمع القيراط الى القيراط ، والاستظهار بالموزعة والاشراط والخبط والخباط ، والاستتكار والاغتباط ، والغلو (141 : أ) والاشتطاط ، وبناء الصرح وعمل الساباط ، ورفع العماد وادارة الفسطاط ، الا ألم لم يذهب القوة ، وينسى الآمال المرجوة ، ثم نفس يصعد ومكبرات تتردد وحسرات — لفراق الدنيا — تتجدد ولسان يثقل ، وعين تبصر الفراق الحق وتمقل . « قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون (2) » ثم القبر وما بعده ، والله منجز وعيده ووعدده . فالاضراب والتراب التراب .

وان اعتذر سيدى بقلة الجلد ، لكثرة الولد ، فهو ابن مرزوق لا ابن رازق ، وببيده من التسبب ما يتكفل بامسائه أرماق . أين النسخ الذى يتبلغ الانسان بأجرته ، فى كن حجرته ، لا ، بل السؤال الذى لا عار عند الحاجة بمعرفة السؤال ، والله أقوم طريقا ، وأكرم فريقا ، من يد تمتد الى حرام ، لا تقوم بهرام ، ولا تؤمن من ضرام أخربت غيه الحل وقلبت الاديان والملل . وضربت الابشار ، ونحرت العشار ، ولم يصل منه على يد واسطة السوء المعشار ، ثم طلب عند الشدة ففضح ، وبن (441 : ب) شؤمه ووضح . الله طهر منا أيدينا وقلوبنا ، وبلغنا من الانصراف اليك مطلوبنا ، وعرفنا بمن لا يعرف غيرك ، ولا يسترعد الا خيرك ، يا الله .

وحقيق على الفضلاء — ان جنح سيدى منها الى اشارة ، وأعمل فى اجتلائها اضباره (3) ، أو لبس منها شارة ، أو تشوف لخدمة اماره — الا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن اياس ، ولا يغتروا بسمة ولا خلق ولا لباس ، فما عدا بدا ، تقضى العمر فى سجن وقيد ، وعمرو وزيد ،

(1) الهياط والمياط ، تعبير يطلق على حالة الاضطراب والمجىء والذهاب ، وفعل الاول هاط بمعنى ضج وأجلب ، والمصدر الهيط والهياط .

(2) سورة « ص » آية : 67 — 68 .

(3) الاضبارة : الحزمة من السهام أو الصحف ، والجمع اصابير وفعله . ل ضبر مثلث الفتحات .

وشر وكيد ، وطراد صيد ، وسعد وسعيد وعبد وعبيد . فمتى تظهر
الابكار ، ويقر القرار ، وتلازم الازكار ، وتشام الانوار ، وتتجلى
الاسرار ، ثم يقع الشهود التى تذهب معه الاخبار ، ثم يحق الوصول الذى
اليه من كل سواء القرار ، وعليه المدار . وحق الحق الذى ما سواه فباطل ،
والفيصل الرحمانى الذى بابه الابدى هاطل ، ما شابت بخاطبتى هذه شايبة
تريب .

ولقد محضت ما لم يمحضه للحبيب الحبيب ، فتجمل الذى جملت
(142 : أ) عليه الغيرة ، ولا تظن بى غيرة . وان لم يكن قدرى مكاشفة
سيادتك بهذا البث ، فى الاسلوب الغث ، فالحق أقدم ، وبنائوه لا يهدم .
وشأنى معروف فى مواجهة الجبابة ، على حين يدى — الى رفدهم —
ممدودة ، ونفسى من النفوس المتهافئة عليهم معدودة !! وشبابى فاحم ،
وعلى الشهوات مزاحم . فكيف اليوم مع الشيب ، ونصح الجيب ،
واستكشاف العيب ، وانما أنا اليوم على كل من عرفنى — كل ثقيل ، وسيف
العدل فى كفى صقيل . أعذل أرباب الهوى ، وليست النفوس فى القبول
سواء ، ولا لكل مرض دواء ، وقد شفيت صدرى ، وان جهلت قدرى
فاحملنى ، حملك الله على الجادة الواضحة ، وسحب عليك ستر الابوة
الصالحة ، والسلام .

الرسالة الثانية

ومن ذلك ما صدر عنى فى هذا الغرض بما نصه :
الحمد لله الولى الحميد ، المبدى المعيد ، البعيد فى قربه من البعيد
فى بعده ، فهو أقرب من جبل الوريد (142 : ب) . محبى قلوب العارفين
بتحيات حياة التوحيد ، ومغنى نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار
الى الغرض الزهيد ، ومخلص خواطر المحققين من سجون حجون التقييد
الى فسخ التجديد ، نحمده وله الحمد المنتظمة درره فى سلوك الدوام
وسموط التأييد ، حمد من نزه أحكام وحدانيته وأعلام فردانيته عن
مرابط التقليد فى مخاطب الطبع البليد . ونشكره شكر من افتتح بشكره
أبواب المزيد . ونشهد أنه الله الذى لا اله الا هو ، شهادة نتخطى بها
معالم الخلق الى حضرة الحق على كنز التفريد .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال
العيد ، وفذلة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنثور الادلال ،
واقطاع الكمال ، ما بين مقام المراد ومقام المريد ، الذى جعله
السبب الاوصل فى نجاة الناجى وسعادة السعيد .

وخاطب الخلائق على لسانه الصادق بحجتى الوعد (143 : أ)
والوعيد ، فكان مما أوحى به اليه ، وأنزل الملك به عليه من الذكر الحميد ،
ليأخذ بالحجر والاطواق من العذاب الشديد ، « ولقد خلقنا الانسان ونعلم
ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من جبل الوريد ، ما يلفظ من قول
الا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ،
ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ،
لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (1).
صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الاكيد ، وتسرى
الى تربته الزكية من ظهور المواجد الحبية على المريد . فعدت لتذكيرى ولو
كنت مبصرا لذكرت نفسى ، فهى أحوج للذكر اذا لم يكن منى لنفسى

(1) سورة ق ، آية 16 - 20 .

ذاكرا . فياليت شعري كيف يفعل في أى وعظ بعد موعظة الله يا أحبابنا
يسمع ، وفيماذا وقد تبين الرشد من الغي يطمع ، يامن يعطى ويمنع ،
ان لم تتم (143 : ب) الصنيعة فماذا نمنع اجمعنا بقلوبنا يا من
يفرق الجمع ، ولين حديدنا بنار خشيتك ، فقد استعاذ نبيك من قلب لا
يخشع ومن عين لا تدمع .

اعلموا — رحمكم الله — أن الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها من
الاقوال والاحوال ، ومن الجماد والحيوان وألسنة الملوان ، فان الحق
نور لا يضره أن يصدر من الخامل ، ولا يقصر بمحموله احتقار الحامل ،
وأنتم تدرون أنكم في أطوار سّفر ، لا تستقر لها دون الغاية رحلة ،
ولا تتأتى معها اقامة ولا مهلة ، من الاصلاب الى الارحام الى الوجود
الى القبور الى النشور ، الى احدى داري البقاء ، أفى الله شك (1) ؟ ! ! ،
فلو أبصرتهم منافرا في البريد بينى ويعرش ، ويمهد ويفرش ، ألم تكونوا
تضحكون من جهلة ، وتعجبون من ركالة عقله . ووالله ما أولادكم
وشواغلكم عن الله التى فيها اجتهدكم الا بناء سفر فى قفر ، واعراس
فى ليلة نفر . كأنكم بها مطرحة تغثو فيها المواشى ، وتنبو العيون عن
حفيرها (144 : أ) المتلاشى « انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده

أجر عظيم(2) » ما بعد المقيلا الرحيل، ولا بعد الرحيل الا المنزل الكريم
أو المنزل الوبيل ، وأنكم تستقبلون أهوالا سكرات الموت بواكر حسابها ،
وعتب أبوابها ، فلو كشف الغطاء منا عن ذرة لذهلت العقوم ، وطاشت
الاحلام ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام ، « يأيها الناس ان وعد الله
حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (3) » أفلا أعددتكم
لهذه الورطة حيلة ، أو أظهرتم للاهتمام بها مخيلة ، تعويلا على عفوه
— مع المقاطعة — وهو القائل « ان عذابى لشديد (4) » أأنا من مكره

(2) سورة التغابن ، آية 15 .

(3) سورة فاطر ، آية : 5 .

(4) سورة ابراهيم ، آية : 7 .

— مع المنابذة — « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون (5) » ؟ !!
 أطمعاً في رحمته — مع المخالفة — وهو يقول : « سأكتبها للذين
 يتقون (6) » ؟ !! أو مشاقة ومعاذة « ومن يشاقق الله ورسوله فان
 الله شديد العقاب (7) » ؟ !! أشكا فيه ! فتعالوا نعد الحساب ، ونقرب
 العقد ، ونتصف بدعوة الاسلام أو غيرها من اليوم (144 : ب) تفقدوا
 عقد العقائد عند التساهل بالوعيد ، فالعامى يدهن الاصبع الى جهة ،
 والعارف يضمد لها مبدأ العصب .

هكذا ، هكذا يكون التعامى !! هكذا ، هكذا يكون الغرور !
 « يا حسرة على العباد ما يأتيتهم من رسول الا كانوا به يستهزئون (8) »
 وما عدا عما بدا ورسولكم الحريص عليكم ، الرعوف الرحيم يقول لكم :
 « الكيس من دان نفسه هواها ، وتمنى على الله الامانى (9) » ، فعلام
 هذا المعول ، وبماذا يتأول . اتقوا الله في نفوسكم وانصحوها ، واغتنموا
 فرص الحياة وأربحوها « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب
 الله وان كنت لمن الساخرين (10) » وتنادى أخرى : يا ليتنا نرد فنعمل
 غير الذى كنا نعمل (11) » ، وتقول أخرى : « رب ارجعون (12) » ،
 وتستغيث أخرى : « هل الى مرد من سبيل !! ! » فرحم الله من نظر
 لنفسه قبل غروب شمسه ، وقدم لغده من أمسه ، وعلم أن الحياة تجر

-
- (5) سورة الاعراف ، آية : 99 .
 (6) سورة الاعراف ، آية : 156 .
 (7) سورة الانفال ، آية : 13 .
 (8) سورة يس ، آية : 30 .
 (9) رواه الشيخان .
 (10) سورة الزمر ، آية : 56 .
 (11) اقتباساً من قوله تعالى : « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل
 غير الذى كنا نعمل » الاعراف : 53 .
 (12) سورة المؤمنون : آية 99 من قوله تعالى : حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب
 ارجعون لعلى اعمل صالحاً فيما تركت .. الآية » .

الى الموت ، والغفلة (145 : أ) تقود الى الفوت ، والصحة مركب الالم ،
والشبيبة سفينة تقطع الى ساحل الهرم . وان شاء قال بعد الخطبة :
اخواني ، ما هذا التواني ، والكلف بالموجود الفانى ، عن الدائم الثانى ،
والدهر يقطع بالامانى ، وهادم اللذات قد شرع فى نقض المبانى . الا
معتبر فى معالم هذه المعانى ، ألا أذن تصفى الى سميعة ، أحدثها بالصدق
ما صنع الموت !!! . مددت لكم صوتى بأواه حسرة على ما بدا منكم ،
فلم يسمع صوت هو الغريب الآتى على كل دمنة . فتوبوا سراحا قبل أن
يقع الفوت . يا كلفا بما لا يدوم ، يا مفتونا بغرور الموجود المهدوم ،
يا صريع جدار الاجل المهدوم ، يا مشتغلا ببنيات الطريق ظهر المناخ
وقرب القدوم ، يا غريقا فى بحار الالم ، ما عساك تقوم ، يا معل الطعام
والشراب ولمع السراب ، لا بد أن يهجر المشروب ويترك المطعوم . دخل
سارق الاجل بيت عمرك فسلب النشاط وأنت تنظر ، وطوى البساط وأنت
تكرب ، واقتلع جواهر (145 : ب) الجوارح ، وقد وقع بك البيت ولم
يبق الا أن يجعل الوسادة على أنفك ، وتقول :

لو خفف الوجد * * دعوت طالب ثارى

« كلا انها كلمة هو قائلها (4) » ، كيف التراخى والقوت مع
الانفاس يرتقب وينتظر !! كيف الامان وهاجم الموت لا يبقى ولا يذر !
كيف الركون الى الطمع الفاضح وقد صح الخبر !! من فكر فى كرب
الخمارة تنغصت عنده لذة النبيذ ، من أحس بلغط الحرس فوق جداره
لم يصنع بسمعه الى نغمة العود ، من تيقن بذل العزلة هان عنده
عز الولاية !!

ما قام خيرك يا زمان بشره أولى لنا ما قل منك وما كفى

أوحى الله الى موسى — صلوات الله عليه — أن ضع يدك على متن
ثور فبقدر ما حازته من شعره تعيش سنين ، فقال : يا رب ، وبعد ذلك ؟
قال : وتموت فقال : يا رب فالآن ..

رأى الامر يفضى الى آخر ، فصير آخره أولا

إذا شعرت نفسك بالميل الى شىء فاعرض عليها غصة (146 : أ) .
« ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة » (15) ، فالمفروح به
هو المحزون عليه ! أين الأحباب مروا ، فياليت شعري أين استقروا ،
واستكانوا ، ولله اضطروا ، واستغاثوا بأوليائهم ففروا ، ليتهم — اذ لم
ينفعوا — ما ضرروا ، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية ، والغراس ذابلة
ذاوية ، والعظام من بعد التفاضل متشابهة ، والمساكن تندب فى أطلالها
الذئاب العاوية !!

صحت بالربع فلم يستجيبوا	ليت شعري أين يمضى الغريب
وبجنب الدار قبر جديد	منه يستقى المكان الجديد
غاص فيه قلبى عند التماحى	قلت : هذا القبر فيه الحبيب
لا تسلم عن رجعتى كيف كانت	ان يوم البين يوم عصيب
باقتراب الموت عللت نفسى	بعد الفنا ، وكل آت قريب

أين المعمر الخالد ، أين الولد ، أين الوالد ؟ !! أين الطارف ، أين
التالد ؟ !! أين المجادل أين المجادل ؟ ؟ !

(14) سورة المؤمنون ، آية : 100 .

(15) سورة الانفال ، آية : 42 .

« هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزا » (16) وجوه
علاهن الثرى ، وصحائف (146 : ب) تنض ، وأعمال على الله تعرض .
بحث الزهاد والعباد ، والعارفون والاولئاد ، والانبياء الذين هدى بهم
العباد — عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده ، فلم يجدوا الا البعد عن
الله ، وسبب حب الدنيا « لن تجتمع أمتى على ضلالة » (17) .

هجرت حياتى من أجل ليلى فمالى — بعد ليلى — من حبيب
وماذا أرتجى من حب ليلى تسحرنى بالقطیعة عن قريب

وقالوا : ما أورد النفس الموارد ، وفتح عليها باب الحنف الا الامل ،
كلما قومتها مثاقف الحدود فسح لها أركان الرخص ، كلما عقدت صوم
العزيمة أهداها طرف الغرور فى أطباق : متى ، واذن ، ولكن ، ورب !!
فأفرط القلب فى تقلبيها حتى أفطر .

ما أوبق الانفس الا الامل وهو غرور ما عليه عمل
يفرض منه الشخص وهما ماله حال ولا ماض ولا مستقبل
ما فوق وجه الارض نفس حية الا قد انقض عليها الاجل
لو أنهم من غيرها قد كونوا لامتلأ السهل بهم والجبل
ما ثم الا لقم قد هيئت للم — موت وهو الآكل المستعجل
(147:أ) والوعد حق والورى غفلة قد خدعوا بعاجل وضلوا
أين ذوو الراحات راحت حسرة اذ جنبوا الى الثرى وانتقلوا
لم تدفع الاحباب عنهم غير أن بكوا على فراقهم وأعولوا

(16) مريم : 98 .

(17) رواه الشيخان .

الله في نفسك أولى من له دخ
 لا تتركها في عمى وحيرة
 حقر لها الغنى وحاول زهدها
 وقد الى الله بها مضطرة
 هذا الفناء والبقاء بعده
 يا قرّة العين ويا حسرتها يوم
 رت نصحا وعتابا يقبل
 عن هول ما بين يديها تعقل
 فيه وشوقها لما يستقبل
 حتى ترى السير عليها سهل
 والله عن حكمته لا يسئل
 يوفى الناس ما قد عملوا

يا طرداء المخالفة انكم مدركون ، فاستبقوا باب التوبة ، فان رب
 تلك الدار يجير ولا يجار عليه ، « فاذا أمنتكم فاذكروا الله كما هداكم » (18)
 يا طفيلة الهمة ، دسوا أنفسكم في زمر التائبين ، وقد أذعنوا الى دعوة
 الحبيب ، فان لم يكن أكل فلا أقل من طيب الوليمة . قال بعض العارفين:
 اذا عقد التائبون الصلح مع الله انتشرت رعايا الطاعة في (147 : ب)
 عمالة الاعمال « وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب » (19) .

معانى المجلس — والحمد لله — نسيم سحر ، اذا انتشقه مخمور
 الغفلة أفاق ، سقوط هذا الوعظ ينفذ — ان شاء الله — زكمة البطالة .
 ان الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، اكسير هذا العتاب يغلب ، بحكمة جابر
 القلوب المنكرة عمن كان له قلب ، « انما يستجيب الذين يسمعون والموتى
 بيعتهم الله » (20) .

(18) اقتباسا من قوله تعالى : واذكروه كما هداكم ، وان كنتم من قبله لمن الضالين
 البقرة : 198 .

(19) الزمر : 69 .

(20) الانعام : 36 .

الهي دلها من حيرة يضل فيها — الا ان هديت — الدليل ، وأجلها من
غمرة ، وكيف — الا باعانتك — السبيل ، نفوس صدا على مر الازمان منها
الصقيل ، ونبا بجنوبها عن الحق المقييل ، امضها القول الثقيل ، وعثرات
لا يقييلها الا أنت ، يا مقييل العثار ، يا مقييل . أنت حسبنا ، ونعم الوكيل .

الرسالة الثالثة

ومن ذلك :

اخوانى صمت الآذان والنداء جهير ، وكذب العيان والمشار اليه
شهير ، أين الملك ، وأين الظهير ، أين الخاصة وأين الجماهير ، أين القبيل
وأين العشير ، أين كسرى (21) ، أين ازدشير (22) (148 : أ) صدق
— والله — الناعى وكذب البشير ، وعز المستشار واتهم المستشير ، وسل
عن الكل فأشار الى التراب المشير .

(21) هناك فى التاريخ « كسرى أنو شروان » ثم كسرى أبرويز « فالاول : ملك
ساسانى (531 — 579 م) ابن قباد . حارب فى مواقع عدة ، واحتل أنطاكية ،
وأجبر على عقد هدنة مع البيزنطيين (555 م) كما استولى على اليمن (570 م) .
ومن أهم اصلاحاته الداخلية تعديله لنظام الضرائب فى البلاد بما حقق مصلحة
الناس والدولة ، كما قام بمسح شامل للاراضى . أما الثانى : فهو « كسرى
أبرويز » ، وهو ملك ساسانى أيضا (590 — 628 م) ابن هرمز الرابع .
ارتقى العرش بمساعدة الامبراطور موريق البيزنطى (591) ، وقد احتل
القدس عام 614 ، وقد اغتيل فى السجن بعد أن كان هرقل قد انتصر عليه .

(22) يطلق هذا الاسم على ثلاثة ملوك فارسيين من السلالة الساسانية ، أهمهم
أزشير الاول مؤسس الدولة الساسانية (نحو 226 — 241 م) وقد أعاد بناء
وحدة بلاده ، ثم ازدشير الثانى (370 — 383 م) خلف شابور الثانى .
وتجدر الإشارة فى هذه المناسبة الى أن أزشير سابور وزير بهاء الدولة
البويهى قد أسس فى بغداد دارا للكتب ، كان قوام محتوياتها ما يقرب من
10.000 كتاب عام 990 م .

خذ من حياتك للمات الآتى
لا تغترر فهو السراب بقيعة
يا من يؤمل واعظا ومذكرا
هلا اعتبرت ، ويا لها من عبرة
قف بالبقيع ، وناد فى عرصاته
درجوا ولست بخالد من بعدهم
متميز عنهم بوصف حياة
والله ما استهللت حيا صارخا
لا فوت من درك الحمام لهارب
كيف الحياة لدارج متكلف
أسفا علينا معشر الاموات لا
ويغرنا لمع السراب فنغتدى
والله ما نصح امرءا من غيه

وبدار ما دام الزمان موات
قد خدع الماضى به والآتى
يوما لينقذه من الغفلات
بمدافن الآباء والامهات
فلكم بها من جيرة ولدات
الا وأنت تعد فى الاموات
والناس مرعى معرك الآفات
سنة الكرى بمدافن الحيات
ننفك عن شغل بهاك وهات
فى غفلة عن هادم اللذات
والحق ليس بخافت المشكاة

يا من غدا وراح ، وألف المراح ، يا من شرب الراح (148 : ب)
ممزوجة بالعذاب القراح ، وقعد لقيان صروف الزمان مقعد الاقتراح .
كأنك — والله — باختلاف الرياح وسماع الصباح ، وهجوم غارة الاجتياح ،
فأديل الخفوت من الارتياح ، ونسيت أصوات الغناء برنات النياح ،
وعوضت غرر النوب القباح من غرر الوجوه الصباح ، وتناولت الجسموم
الناعمة أيدي الطراح ، وتتوسيت العهود الوثيقة بكر المساء والصباح ،
وأصبحت كمأة النطاح من تحت البطاح ، وحملة المهندة الرماح ، ذليلة من
بعد الجماح ، ولو كان هذا الموت لا شىء بعده لهان علينا الامر ، واحتقر
الهول ، ولكنه حشر ونشر ، وجنة ونار ، ومالا يستقل به القول .

يا مشتغلا بداره ، ورم جداره عن انزاعه الى النجاة وبقاره ، يا من
صاح بانذاره شيب عذاره . يا من صرف عن اعتذاره باقذاره واقذاره ،
يا من قطعه بعد مزاره وثل أوزاره ، يا معتقلا ينتظر هجوم جزاره .
يا مختلسا للامانة يرتقب مفتش ما تحت ازاره . يا من أمعن في خمر
(149 : أ) الهوى خف من اساره ، يا من حالف مولى رغه توق من انكاره .
يا كلفا بعارية ترد ، يا مفتونا بأنفاس تعد ، يا معولا على الاقامة والرحال
تشدد ، كأئننى بك وقد أوثق الشد ، وألصق بالوسادة الخد ، والرجل تقبض
والاخرى تمد ، واللسان يقول : يا ليتنا نرد !!

انا لله له ما أشغل	الانسان عن شأنه
يرتاح للاثواب يزهى بها	والخيوط مغزول لا كفانه
ويخزن الفلاس لورائيه	مستنفدا مبلغ امكانه
قوض عن القانى رحال أمرى	مد اليه كف عرفانه
ما ثم الا موقف راهن	قد وكل العدل بميزانه
مفرط يشقى بتفريطه	ومحسن يجزى باحسانه

يا هذا ، خفى عليك فرض اعتقادك فالتبس الشحم بالورم . جهلت
قيم المعادن فبعت الشبة بالذهب فسد حسن ذوقك فتفككت بحنظلة . أين
حرصك من أجلك ؟ أين قولك من عملك ؟ يدركك الحياء (149 : ب) من
الطفل فتتحامى حمى الفاحشة فى البيت بسببه ، ثم تواقعها بعين خالق
العين ، ومقدار الكيف والأين !! تالله ما فعل فعلك بمعبوده من قطع
بوجوده ، « ما يكون من نجوى ثلاثة . . » الآية (23) . تعود عليك مساعى
الجوارح التى سخرها لك بالقناطر المقتنطرة بالذهب والفضة ، فتبخل منها
فى سبيله بفلس ، وأحد الامرين لازم : اما التكذيب ، واما الحماقة ،

(23) سورة المجادلة ، آية : 7 .

وجمعك بين الحالتين عجيب !! يرزقك السنين العديدة من غير حق وجب لك ، وتنسى الظن به في يوم توجب الحق ، وتعتذر بالغفلة ، فما بال التماذي ؟ !! تعترف بالذنب فما الحجة من الاصرار ؟ !! « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا » (24) يا مدعى النسيان ، ماذا فعلت من بعد التذكير ؟ يا معذرا بالغفلة أين نضرة التنبيه ؟ يا من قطع بالرحيل ، أين الزاد ؟ يا ذنابة الحرص ، الى كم تلجلج في ورطه الشهد ؟ يا نائما ملأ عينه جدر الاجل يريد أن ينقض ياثمل الاغترار قرب خمار الندم تدعى الحقوق بالصنائع (150 : أ) وتجهل هذا القدر !! تبذل النصيح لغيرك ، وتغش نفسك هذا الغش !! اندمل جرح توبتك على عظم ، قام بناء عزيمتك على رمل نبتت خضراء دعوتك على دمنة . عقدت كفك من الحق على قبضة ماء « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا .. » الآية (25) اذا غام جو المجلس ، وابتدا رشم غمام الدموع ، قالت النفس الأمانة : حوالينا لا علينا ، فذلت رياح الغفلة ، وسحاب الصيف تصفاف . كلما شد طفل العزيمة كفه على درة التوبة ما نعته طير الشهوة على ذلك بعصفور ، اذا ضيق الخوف فسحة المهل سرق الامل حدود الجار قال بعض الفضلاء :

كانوا اذا فقدوا مطلوبهم تفقدوا قلوبهم . ولو صدق للواعظ الأثر اللهم لا أكثر . طبيب يداوى الناس وهو عليل !! والمتفطن قليل ، فهل الى الخلاص سبيل ، أنظرنا بعين رحمتك التي وسعت الأشياء ، وشملت الاموات والاحياء ، يا دليل الحائرين دلنا ، يا عزيزا ارحم ذلنا (150 : ب) يا ولى من لا ولى له كن لنا ان أعرضت عنا ، فمن لنا ؟ نحن المذنبون ، وأنت غفار الذنوب ، فقلب قلوبنا يا مقلب القلوب ، واستر عيوبنا يا ستار العيوب ، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب . أنت حسبنا ونعم الوكيل .

(24) الاعراف : 58 .

(25) سورة فاطر ، آية : 8 .

الرسالة الرابعة

ومن ذلك الغرض مما خاطب به أحد الفضلاء :

الحمد لله على نعمة الاسلام ، وبنور النبوة نجلو غياهب الظلام
ونسعى الى دار السلام . حفظك الله يا أبا سعيد ، وأرشد سعيك وتدارك
بالمرمة وهيك ، قبل أن يسمع الموت نعيك . وقفت على براءتك الطويلة
الذيل ، المطففة في الكيل ، مشتملة على تهويل ، ومرعى وبيل ، وعتاب
طويل ، وتبجح بألفاظ وأقاويل ، لم ينجع فيها طب ابن مقدم ولا علاج
ابن عبد الجليل . ما ثم الا عوائد يشتكى من لزومها ، ووخز كلومها .
وبعد تتطور من طول مداه ، ووهم يقلق من اشتباك لحمته بسداه ، مع
الاعتراف منك ، وبالعثور من الشيخ الواصل على الكنز (151 : أ)
الحاصل ، ومصاحبة من يطيق بالحسام الفاصل ، ان كان الفتح حاصلا
فما معنى الشكوى ؟ أو لم يحصل فحتى متى البلوى ؟ وهذا الدين الذي
يلوى ، وغريمه مع اللدد يهوى ، والهوى مع انصرام العمر في هذا
المهوى . أين الثمرات يا شجر الجور ؟ أين الراهبى يا عاجلى البظة في
است الثور ؟ !!

ثناؤكم على الناس تقليد ، وشأنكم في الاختبار شأن البليد ،
وعقولكم يرتفع عنها عقل الوليد !!

ثم ان هذه العوائد الننى تشتكى ، ويضحك لها ثم يبكى ، ويتلذذ
بذكرها حين تحكى . لم تضايق الايمان ، ولا رفعت — والحمد لله —
الامان ؟ انما هى — بزعمكم — حب دنيا لا يعارض العقد ، ولا يباين
الوعد . والعوائد تعالج مع بقائها ، وعمران نافق بها ، بأودية شرعية
تنير عبوسها ، وتذهب بوسها ، وتملس أديمها وتؤنس عديمها . صعب
عليكم استعمالها ، وسهل لديكم اهمالها ، ورمتم الغايات بالترهات ،
والحقائق بالشبهات ، ودعوى الدرجات مع الدرجات ، والشرعية لم
تذهب ، والمدارس لم تخرب ، والكتب لم تحرق ، وسيرة النبى

(151 : ب) والسلف الصالح لم تختلس ، ولم تسرق بينكم من الوسائل الشرعية والذمم المرعية .

أين الصدقات اذا حددت الى الاكف الحدقات ؟ أين زلف الليل ؟ أين الزكاة المتوعد ممسكها بالويل ؟ أين الجهاد وارتباط الخيل ؟ أين الحج وركبانه يتدافع تدافع السيل ؟ أين تلاوة القرآن الذى تطمئن به القلوب ؟ أين الخلق الذى لا يصح دونها المطلوب ؟ أين الحظ المغلوب ؟ أين الصبر والسكون وانتظار الفرج ممن يقول لشيء كن فيكون ؟ أين قيدها وتوكل ؟ أظنه أشكل ؟ أين الانفة من الاشتهار ؟ أين الانيس بالخلوة بياض النهار ؟ عدل عن ذلك كله الى البخل على المساكين ، والسلطة على الدكاكين . وهجر المورد المعين ، والتعويل على الوصول الى الله من خوخة ابن سبعين ، والحرمان تتضاعف مكاسبه ، والمقصد الخبيث يمدد الشيطان بما يناسبه . مقام التوبة لم يحصل ، وبسوء الولاية تفصل ؟ عفو والعقد الصحيح لم يبرم ، والمحرمات بعد لم تحرم والمواجد يخطب بها المحل الاكرم !!! القواعد بعد مضاعة ، ومعرفة الله قد (152 : أ) قد جعلت براعة الخلق لم تهذب ، والنفوس فى التماس الكمال تعذب . ثمرات العمل لم تحصد ، وغاياتها فى الحوانيت تقصد . كأن جمهور المسلمين ممج مهمل ، كأن الانبياء لم تبين ما يعمل ، كأن الشريعة ليس لاوضاعها سوق ، ولا لنخلها بسوق . كأن الشافعى أو مالك ليس بسالك ، وأن من دون أشياخكم هالك . هذا لو كان لكم أشياخ ، أو ليسير جيرتكم مناخ !!

انما هى أعلام للشهرة تتصب ، وتيجان للحظوظ تعصب ، النسي يذكر والذكر ينسى ، وظهور الولد والمساكين تعرى ، والخليلى يكسى ، وأبدأ بمن تعول يوسع رسمه طمسا ، والاعتدال يحكم فيه الجدل . بالله خلوا عنكم الاصطلاح الخالى ، وهذا التتوين الغالى مع حرمان المخالى . والقنوع بالفراع مع حرونة المزاع . والغليان الذى يبغضكم الى الله والى خلقه ، وهمم الشهداء فى رقة ، مع الغفلة عما أوضح لكم الشرع من

حقه ، وتخطى الطاهر المضمون الى المشكل المضمون . فلو كان سيركم مستقيما لم يكن القياس عقيما . عميان قد هجرت (152 : ب) الكحال ، وأملت في رد ابصارها المحال !!

ما الذى رابكم — آنس الله اغترابكم — من سيرة السلف الذين تجروا وكسبوا ، وانتموا لغنى الكف وانتسبوا ، وتصدقوا ووهبوا ، وجاهدوا وحجوا ، وما انحرفوا ولا لجوا ، وبسيرة أعلامهم احتجوا ، وسعوا والتمسوا ، وأكلوا الطيب ولبسوا ، وجوارحهم بميزان الشريعة أرسلوا وحبسوا ، وشهد لهم بالخلاص عقدهم الذى حفظوا ودرسوا . لم يزمعوا لغير الضرورة طلاقا ، وأشفقوا من فراق أهليهم اشفاقا ، ولا حلوا لحسن العهد نطاقا ، ولا قتلوا أولادهم املاقا (26) ولم يضرهم — مع الاستقامة — معاشهم ، ولا قطع بهم — عن الله — أثاثهم ولا رياشهم ، بل — الى فئة الحق — انحياشهم ، وأنتم — على الحقيقة ومن لكم بذلك — أوباشهم . وان قلتم : وسعوا ما ضاق عنه احتمالنا ، ولم تستطعه أعمالنا ، فهلا تفطنتم وانتبهتم ، وتكفلتم هديهم وتشبهتم ؟ !!

تظنون أنكم غاب عنكم ما دركنتم ، وأعجزوا عما اليه تحركتم ! وهب أن ثم مقامات عالية ، ولمقدمات أصل (153 : أ) الشريعة بزعمكم بالية ، هلا استربتم اذا لم تدركوها ، وان لم تحصلوا منها الا على أن تحكوها ، فرجعتم الى الاصل المجرد والطريق المقرر ، فمن ضل وجب عليه أن يعرس حتى يصبح ، ويبدو المميع ويتضح . فاقتحام المفاز بلا دليل شأن غير النبيل ، وبالانقطاع كفيل .

ويا ليتكم بلغتكم درجة البله المشهود بتوفيقهم ، وصحة طريقهم .

(26) اقتباسا من قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم » الانعام : 151 . او قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم .. » الاسراء : 31

ومن أجهده الحزن أسهل ، ومن تحير وجب عليه أن يسأل ، وترك اللجاج أجمل ، ومن يرب الامر يتأول ، ومن لم يستيقن فلا يعجل ، والطريق التي احتقرتم — والله — أهمل ، وأحجكم بالشيخ عبد الجليل (27) الذي ظلمتموه ، وبكشف الغيوب اتهمتموه ، وبالولاية حددتموه ووسمتموه ، وهو يقوم على السبب بيعا وشراء ، واعمارا وكراء ، ويصلح من كرمه الذى لم يبلغه ولم يرمه ؟ فان قلتم ذلك شيخ هداية ، فقد كان ذا بداية ، ومفتقرا مثلكم الى داية ، فلم تلح عليه من شىء مما أنتم عليه آية ، ولم يطلق زوجه مجانا ، ولا تطارح فى مصلى الجنائز عريانا ، ولا خطت (153 : ب) منه فى مجال النجايسات رجل ، ولا دب الى وادى الحمة (26) كأنه عجل . فعلام عولتم فيما ناولتم ، القديم مخالف السميت ، والحديث متهم بالعوج والامت ، أعلى أهل السبت ، ومن حكم عليه بالكبت ؟!!
نستغفر الله ذا الجلال ، ونستهدى به من الضلال ، ونعتبرأ اليه من نفوس عجل لها العذاب (27) ، حالك يا أبا سعيد والقريب البعيد فمورد المودة لم ينضب معينه ، ولا التبس بالشك يقينه ، ومن أعان مستقيما

(27) لم يعرف به المؤلف أكثر ، فلعله شيخ معاصر ، له ملابسة ، موضوع الرسالة .

(28) الحمة أو الحامة : هى Alhama بلدة بالاندلس فى الجنوب ، تقع قرب مدينة ريحانة من أعمال « المرية » ، وقد أطلق عليها العرب هذا الاسم نسبة الى العين الحارة التى بها ، والتى هى مقصد كثير من ذوى العلل والاستقام ، وما تزال العين باقية حتى اليوم ، بالاضافة الى جزء من الحمامات العربية القديمة . وقد وصفها ابن الخطيب نفسه فى « معيار الاختيار » بقوله :
« أجل . الصيد والحجل ، والصحة وان كان المعتبر الاجل ، وتورد الخدود وان لم يطرقتها الخجل . والحصانة عند الهرب من الرهب ، والبر كأنه قطع الذهب ، والحمة التى حوضها يفهق بالنعيم ، مبذولة للخامل والزعيم ، تمت ثنيتها بالنسب الى ثنية النعيم ، قد ملأها الله اعتدالا ، فلا تجد الخلق اعتياضا عنه ولا استبدالا ، وأنبط صخرتها الصماء عذبا زلالا ، قد اعتزل الكدر اعتزالا .. »

راجع : الحميرى فى « الروض المعطار » ص : 39 ، وابن بطوطة فى « الرحلة » ج 2 ص 187 .

فأله يعينه . ومن يتصل بكم من جفاء فهو — علم الله — تأديب وتهذيب ،
 وغيره يجدها ولي حبيب ، والله شهيد رقيب . ولو كان بودى لم تكن
 يدك مغلولة ، ولا نفسك على الشح مجبولة ، ولا ولدك عاريا ذليلا ، ولا
 الخير — ببيتك الخالي بالحبوب المختزنة — قليلا ؟ ولا همك على الجهاد
 في سبيل الله كاسلة ، ولا خباثت المصطلحات عن حذبك ناسلة ولا
 استعدادك على شحك بما رزئت من مالك ودمك ، سماعا من فمك ،
 فأصبحت من أفقها والرفض من شيمتك (154 : أ) فتفطن لما نزل بك ،
 وأسأل الله صلة بسبك وأعلم أنى بذلت لك النصيحة منذ زمان برسالة
 الغيرة على أهل الحيرة ، وقد علمت ثمال أمرك ، وضرب زيدك وعمرك .
 فلو قفلت ما جلت ، ولو سمعت ما كنت ، وفي المحال طمعت ؟ ولكنك معتدل
 التصريف ، بجانب للتحريف ، منفق في سبيل الله للتليد الفانى والطريف ،
 جار من الاحسان — لك ولولدك — على السنن الشريف .

هذا جواب سحائك المشجعة ، ورسالتك القليلة الطحن الكثيرة
 الجمعة (29) . وقد أغرتنا — والحمد لله — تلك الغرارة ، « وان النفس
 لأماره » (30) ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ؟

**

تم الكتاب (31) بحمد الله المعين وبتمامه كمل جميع الديوان ،
 والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم الانبياء والمرسلين ،
 صلاة تحل العقد ، وتفرج الكرب ، آمين رب العالمين ، وسلم كثيرا الى
 يوم الدين .

(ونسخ) في خامس ذى الحجة الحرام ، من عام ثلاثة وسبعين
 وثمان مائة .

(29) اقتباسا من المثل العربى « جعجة ولا أرى طحنا » والطحن : الدقيق ،
 والجعجة صوت الرحى ، ويضرب المثل لمن يعد ولا يفى .

(30) اقتباسا من قوله تعالى : « وما ابرىء نفسى ان النفس لامارة بالسوء »
 سورة يوسف ، آية : 53 .

(31) « الريحانة » .

مراجع التحقيق و الدراسة

مراجع التحقيق والدراسة

المصادر العربية :

- 1 — الاحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، الجزء الاول . تحقيق عبد الله عنان ط. دار المعارف . مصر 1955 .
- 2 — أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، للقفطى ، ط. القاهرة . 1326 .
- 3 — ارشاد الاريب الى معرفة الاديب — معجم الادباء . لياقوت الحموى ط. مصر 1909 .
- 4 — أزهار الرياض في أخبار عياض . لشهاب الدين أحمد المقرئ ، تحقيق مصطفى السقا والابيارى وشلبى . ط. القاهرة 1939 .
- 5 — الاعلام . قاموس لاشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين . خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية .
- 6 — الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، لابی عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ، تحقيق على محمد الحجاوى . مصر .
- 7 — الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى للشيخ أبى العباس أحمد الناصرى . ط. الدار البيضاء 1954 .
- 8 — أنس الفقير وعز الحقير لابی العباس أحمد الخطيب المعروف بابن قنفذ تحقيق محمد الفاسى . المركز الجامعى بالرباط 1965 .
- 9 — الآثار الباقية عن القرون الخالية . لابی الريحان محمد البيرونى ، تحقيق ادورد ساشو ، ط. ليبسك 1923 .
- 10 — الاغانى لابی الفرج على بن الحسين الاصفهاني . ط. دار الكتب المصرية 1927 .
- 11 — بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة . للامام السيوطى . ط. مصر 1326 .

- 12 — البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . للقاضى محمد بن على الشوكانى . ط. مصر 1348 .
- 13 — بغية الملتبس فى تاريخ رجال الاندلس ، لاحمد بن يحيى بن عميرة الضبى . مدريد 1883 .
- 14 — البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان . للشيخ أبى عبد الله المديونى . تحقيق أبى شنب . ط. الجزائر 1908 .
- 15 — التاج . تاج العروس من جواهر القاموس . للشيخ مرتضى الزبيدى مصر 1307 .
- 16 — التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا . لآبى زيد ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون . تحقيق ابن تاويت الطنجى . القاهرة 1951 .
- 17 — تاريخ الادب العربى . عمر فروخ . دار العلم للملايين بيروت 1965 .
- 18 — تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب) تحقيق د. أحمد العبادى ، ومحمد ابراهيم الكتانى . الدار البيضاء 1964 .
- 19 — تاريخ اسبانيا الاسلامية . للمستشرق ليفى بروفنسال ، (الجزء الثانى من اعمال الاعلام لابن الخطيب) بيروت 1956 .
- 20 — تاريخ الفكر الاندلسى للمستشرق أنخل بالنتيا ، تعريب د. حسين مؤنس . مصر 1955 .
- 21 — تاريخ آداب اللغة العربية . جرجى زيدان . دار الهلال . مصر 1931 .
- 22 — تاريخ الرسل والملوك لآبى جعفر محمد بن جرير الطبرى . دار المعارف . مصر 1963 .
- 23 — التكملة لكتاب الصلة . للإمام أبى عبد الله محمد القضاى (ابن البار) مصر 1955 .

- 24 — جذوة المقتبس في ذكر ولاية الاندلس ، لابی عبد الله بن فتوح الحمیدی . تحقيق محمد بن تاویت الطنجی . القاهرة 1371 .
- 25 — جمهرة الاولیاء وأعلام أهل التصوف . للشیخ محمود أبی الفیض المنوفی . القاهرة 1967 .
- 26 — جمهرة أنساب العرب لابن حزم . دار المعارف . مصر 1948 .
- 27 — ابن الخطیب من خلال كتبه . محمد بن أبی بكر التطوانی . تطوان 1954 .
- 28 — الدرر الكامنة فی أعیان المئة الثامنة . للشیخ أحمد بن علی المشهور بابن حجر العسقلانی . حیدر اباد 1350 .
- 29 — دائرة المعارف الاسلامیة . (المستشرقون) تعریب ابراهیم خورشید وزملاؤه 1933 .
- 30 — دائرة المعارف (اللبنانیة) بإشراف فؤاد افرام البستانی . بیروت 1962 .
- 31 — ریحانة الكتاب ونجعة المنتخب للسان الدین بن الخطیب . (مخطوطة) بالخزانة العامة بالرباط .
- 32 — سلوة الانفاس ومحادثة الاکیاس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس . للشیخ محمد بن جعفر الکتانی . طبعة حجرية بفاس .
- 33 — الذیل والتکملة لکتابی الموصول والصلة . لابی عبد الله محمد بن محمد المراكشی . تحقيق الدكتور احسان عباس . بیروت 1964 .
- 34 — الشعر والشعراء . لابی محمد عبد الله بن مسلم بن قتیبة . تحقيق أحمد محمد شاکر . القاهرة 1966 .

Obras de Autores Europeos

Aguado Bleye

Historia de Espania

TI, Madrid 1958

ALARCON, Y GARCIA DE LINARES

- Los documentos arabes diplomaticos del archivo de la
Coronica de Aragon
Madrid. Granada, 1940

BROCKELMANN

- Geschichte der Arabischen Literature
Berlin 1898 - 1902

REMIRO, GASPAR

- Correspondencia a diplomatica entre Granada y Fez (s. XIX.
Granada, 1616

GAYANGOS

- The history of the Mohammedan dynsties in Spain
Londres, 1840 - 1843

HUICI, AMBROSIO

- Las grandes batallas de la reconquista
Madrid, 1956

LAFUENTE ALCANTARA, EMILIO

- Inscripciones arabes de Granada
Madrid, 1860

LAFUENTE ALCANTARA, MIGUEL

- Historia de Granada
Granada, 1843

LEON AFRICANO

- Descripcion de Africa
Tetnan, 1952

LEVI, PROVENCAL

- La voyage de Ibn Battuta dans le royaume de Grenade
Melanges william Marcais ~
Paris, 1950

MULLER

- Beitrage
Munich, 1866.

SANCHEZ ALBORNEZ, CLAUDIO

- La Espana
Madrid, 1960

SACO DE LUCENA PAREDES, LUIS

- Documentos arabigo-granadinos
Madrid, 1961

SIMONET

- Descripcion del reinode Granada bajoda de los nazarits
Madrid, 1860

BIMONET

- Descripcion del reino de Granada tomada de los autores arabigos
Granada, 1872

PRIETO Y VIVES

- De como debio nazer elreino de Granada
Madrid, 1927

فهرس المترجم لهم

فهرس المترجم لهم

حسب ورودهم بالمخطوط

صفحة

« القسم الاول »

- 1 - جعفر بن الزيـيات 22
- 2 - أبى الحسن القيجاطى 24
- 3 - أبى اسحاق بن أبى العاص 25
- 4 - أبى القاسم بن جـزى 27
- 5 - أبى البركات البلفيقى 28
- 6 - أبى جعفر بن خميس 30
- 7 - أبى زكريا ابن السراج 30
- 8 - أبى جعفر بن أبى خالد 32
- 9 - أبى سعيد بن لب 32
- 10 - أبى يزيد ابن أبى خالد 33
- 11 - أبى عبد الله اليتيم 33
- 12 - أبى عبد الله الخريز الخياط حرفة 34
- 13 - أبى عبد الله البـدوى 35
- 14 - أبى جعفر بن فركون 35
- 15 - أبى جعفر بن أبى جبل 36
- 16 - أبى بكر بن شـيرين 37

- 17 - أبي القاسم بن أبي ... 39
- 18 - أبي اسحاق بن طاهر ... 40
- 19 - أبي عبد الله بن ... 41
- 20 - أبي القاسم ... 41
- 21 - أبي الحجاج المتشافري ... 43
- 22 - أبي محمد عبد الحق بن عتيبة ... 43
- 23 - أبي القاسم بن عيسى ... 44
- 24 - أبي زيد خالد بن خالد ... 45
- 25 - أبي عبد الله بن عتبة ... 46
- 26 - أبي زكريا القبايعي ... 46
- 27 - أبي جعفر السيمسي ... 47
- 28 - أبي جعفر بن عبد ... 47
- 29 - الحكيم المفرد أبي ... 48
- 30 - المكتب أبي عبد الله بن ... 49
- 31 - ابن عبد الله بن ... 50
- 32 - أبي عبد الله بن ... 52
- 33 - أبي عبد الله بن ... 52
- 34 - أبي جعفر بن ... 52
- 35 - أبي الحسن ... 53
- 36 - أبي عبد الله ... 54
- 37 - أبي عبد الله ... 54
- 38 - أبي القاسم بن رضوان ... 55
- 39 - أبي جعفر بن ... 55
- 40 - أبي بكر بن ... 56

- 41 - المؤذن أبى الحجاج بن مرزوق 56
- 42 - أبى الحسن بن الجياب 57
- 43 - الكاتب أبى عبد الله اللوشى 59
- 44 - أبى بكر بن الحكيم 61
- 45 - أبى جعفر بن صفوان الملقى 62
- 46 - أبى اسحاق بن زكرياء 63
- 47 - أبى اسحاق ابن الحاج 64
- 48 - أبى القاسم بن قطبة 64
- 49 - أبى بكر القرشى 65
- 50 - أبى عبد الله بن جزى 66
- 51 - أبى العلا بن سماء 67
- 52 - محمد بن عبد الله بن الخطيب (المؤلف) 68
- 53 - أبى جعفر بن خاتمة 69
- 54 - أبى عبد الله بن بقى 70
- 55 - أبى على حسن بن عبد السلام 71
- 56 - أبى الحسن بن الصباغ 71
- 57 - أبى عبد الله الطراز 73
- 58 - أبى جعفر بن داود الوادى آشى 73
- 59 - أبى عبد الله بن حسان 74
- 60 - أبى عبد الله بن مصادف الرندى 75
- 61 - أبى اسحاق بن جعفر 76
- 62 - أبى جعفر 76
- 63 - أبى الحسن البربرى الملقى 77
- 64 - أبى القاسم بن مقاتل الملقى 77
- 65 - أبى زيد عبد الرحمن المينشتى 78

- 66 - أبى جعفر ، المعروف بالبقيل - من أهل المرية 78
- 67 - أبى جعفر بن جعفر - من أهل مالقة ... 79
- 68 - أبى على بن حسن بن الخطيب أبى الحسن القيباطى 79
- 69 - أبى محمد بن الرابع - من أهل بليش ... 80
- 70 - أبى عبد الله المتأهل ، المعروف بعمامتى - من
أهل وادى آش ... 81
- 71 - أبى المؤلف - رحمه الله ... 82
- 72 - أبى بكر البلوتى - من أهل المرية ... 84
- 73 - أبى عبد الله السراج ... 85
- 74 - أبى زكريا يحيى بن هذيل التجيبى ... 85
- 75 - أبى عمرو بن عباد - من أهل رندة ... 86
- 76 - أبى الوليد بن هانى - من أهل غرناطة ... 87
- 77 - أبى عبد الله الكفيف - من أهل مالقة ... 88
- 78 - الاديب الحاج الرجال أبى اسحاق الساحلى ... 88
- 79 - القائد أبى جعفر أحمد بن خير ... 89
- 80 - أبى جعفر بن غفرون ، من الجند ... 90
- 81 - أبى جعفر الروية - من أهل بليش ... 91
- 82 - أبى عبد الله العبدري الملقى ... 92
- 83 - أبى القاسم الشريف الحسنى ... 93
- 84 - الشريف أبى عبد الله بن الحسن الحسنى ... 95
- 85 - أبى القاسم بن الرئيس أبى زكرياء العزفى ... 95
- 86 - أبى عبد الله بن الشيخ الحاجب بتونس أبى
الحسن بن عمـر ... 96
- 87 - أبى عبد الله ابن الحاجب بتونس أبى عبد الله بن
العشاب ... 98

- 88 - صاحب القلم الاعلى بالمغرب أبى محمد عبد
المهيمن الحضرمى 99
- 89 - الخطيب أبى عبد الله بن رشيد 100
- 90 - أبى عبد الله بن هانى السبتي 103
- 91 - أبى الحسن بن تدارت 104
- 92 - القاضى أبى الحجاج الطرطوشى 105
- 93 - أبى العباس بن شعيب 106
- 94 - الكاتب أبى عبد الله بن عمر التونسي 108
- 95 - أبى عبد الملك - من أهل مراكش 108
- 96 - أبى اسحاق الحسانى - من أهل تونس 109
- 97 - أبى عبد الله المكودى - من أهل فاس 110
- 98 - الادبية أم الحسين بنت أحمد الطنجاوى - نزيلة
لوشة 111

القسم الثانى

- 1 - الخطيب أبى عبد الله الساحلى الملقى الولى 115
- 2 - أبى جعفر الشاطبى 116
- 3 - الخطيب ابن على القرشى 117
- 4 - القاضى أبى عمر بن منظور 118
- 5 - الخطيب ابن الطاهر بن صفوان الملقى 119
- 6 - الشيخ أبى عبد الله الطرطوشى 120
- 7 - الفقيه ابن عبد الله الحاج - من أهل مالقة 121
- 8 - الشيخ الوزير على بن عفرون 122
- 9 - الوزير الكاتب أبى عبد الله بن عيسى 122

- 10 — الكاتب أبي بكر بن العريف
- 11 — الشيخ أبي عبد الله المتأهل
- 12 — الشيخ أبي عبد الله بن ورد
- 13 — الشيخ أبي عبد الله العراقي الوادي آشى ..
- 14 — أبي جعفر الجوال الملقى
- 15 — أبي الحسن الدراد الملقى
- 16 — الاديب أبي الاصبع عزيز بن مطرف
- 17 — الاديب أبي عبد الله بن فضيلة
- 18 — أبي القاسم الورشيدي
- 19 — أبي الحجاج بن مرزوق الرندي
- 20 — القاضي أبي بكر بن منظور
- 21 — القاضي أبي جعفر بن برطال
- 22 — الفقيه أبي عامر عبد العظيم
- 23 — الفقيه أبي عثمان
- 24 — أبي عثمان بن أبي عثمان
- 25 — المقرئ أبي القاسم الحرابي
- 26 — الفقيه الصوفي أبي جعفر العاشق ..
- 27 — أبي القاسم الساحلي
- 28 — أبي القاسم عبد الله بن أبطيح
- 29 — أبي الحسن علي بن عبد العزيز بن قيس ..
- 30 — أبي الحسن السالك الغرناطي
- 31 — الوزير أبي جعفر بن المداني
- 32 — الحاج أبي عبد الله الشديد
- 33 — أبي الحسن الرعيني

- 34 — الفقيه الخير أبي عبد الله الشكاز الأندلسي . 133
- 35 — العدل أبي عبد القطان .. 133
- 36 — الوزير أبي عبد الله بن سلطور .. 133
- 37 — العدل أبي عبد الله بن مشتمل البلياني 134
- 38 — المؤلف أيضا — رضى الله عنه .. 134
- 39 — أبي عبد الله بن سلمة الكاتب .. 135
- 40 — أبي بكر بن مقاتل .. 135
- 41 — أبي عبد الله الشريشي .. 136
- 42 — أبي عبد الله اللؤلؤة .. 136
- 43 — أبي عبد الله ابن خاتمة .. 137
- 44 — أبي يحيى بن داود .. 137
- 45 — أبي عبد الله بن البقاء .. 138
- 46 — أبي عبد الله الطشكري .. 138
- 47 — أبي عبد الله بن مشرف .. 138
- 48 — أبي جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم .. 139
- 49 — أبي عبد الله بن هانى .. 139
- 50 — الكاتب أبي عمرو بن زكرياء .. 139
- 51 — الحاج أبي العباس الفراق .. 140
- 52 — الكاتب أبي العباس الملياني .. 140
- 53 — أبي اسحاق بن سعيد .. 141
- 54 — أبي العباس أحمد بن عبد الحق .. 141
- 55 — الشريف أبي عبد الله العمراني .. 142
- 56 — أبي عبد الله جابر الكفيف .. 142
- 87 — الأديب أبي اسحاق بن الحاج .. 142
- 58 — الأديب ابن حرب الله .. 143
- 59 — أحد الفضلاء .. 143

محتويات الكتاب

صفحة

3	مقدمة
15	المؤلف
19	الباب الأول :
	« أوصاف الناس في التواريخ والصلات »
	— القسم الأول —
22	مما ثبت في « التاج المحلى ، في مساجلة القدح المعلى »
113	الباب الثانى :
	« أوصاف الناس في التواريخ والصلات »
	— القسم الثانى —
	مما ثبت في « الاكليل الزاهر ، فيمن فضل عند نظم التاج
113	من الجواهر »
	الباب الثالث :
145	« كتب الزواجر والعظات »
147	الرسالة الاولى
159	الرسالة الثانية
169	الرسالة الثالثة
175	الرسالة الرابعة
183	مراجع التحقيق والدراسة

